الفصل الثالث

بيزنطة منذ قيام الامبراطورية الكارولنجية

بيزنطة وشارلمان:

كان لضياع مركز بيزنطة في القسم الغربي من الامبراطورية اثارا سيئة تفوق الاثار التي ترتبت على اخفاقها العسكري في منطقتي البلقان واسية الصغرى ، وصادف في الفترة نفسها التي كان يتحكم فيها بمقدرات بيزنطة ومصيرها امرأة وخصيان وعبيد قصر ، انه كان على راس المملكة الفرنجية حاكم من اكبر الحكام وشخصية من اقوى الشخصيات انه شارلمان ملك المملكة الفرنجية الغربي الذي كان في هذه الفترة يقوم بأعمال بارزة ويعد مملكته لتشغل دورا اساسيا في تقرير مصير اوربا الغربية فهو الذي ضم الى مملكته منطقة بافاريا ، واخضع السكسون ونشر بينهم النصرانية ، وهو ايضا الذي وسع حدود مملكته على حساب السلاف وقضى على مملكة الافار، انه هو الذي قضى على مملكة اللومبارد وضمها الى مملكته وضمها اليه وهذا امر له اهمية خاصة وذلك لان نجاح شارلمان في هذا المشروع جاء في اعقاب اخفاق البيزنطيين في تحقيق الامر نفسه وبالتالي تناقص سلطتهم وانحطاط مكانتهم في روما ، وفي الوقت نفسه قوت الكنيسة الكاثوليكية في روما تحالفها مع المملكة الفرنجية وادارت ظهرها لبيزنطة ، ومع ان بيزنطة عادت الى جادة الاورثوذكسية وأعادت تقديس الايقونات وعبادتها وبهذا ازالت الخلافات الدينية بينها وبين روما ، فان الجفاء بين القسطنطينية وروما لم يزل وظل الخلاف بين البلدين واستمر الصراع لان روما رفضت الاعتراف بمساواة القسطنطينية وتابع البابوات جهودهم لاثبات اولوية روما كمركز ديني والقديس بطرس كزعيم اكبر

للنصرانية وهكذا زال نفوذ الامبراطورية البيزنطة من روما وطبعا لم يكن للبابا نفوذه على القسطنطينية ، ويبدو ان عدم اهتمام البابوات بالقسطنطينية يعود الى شعورهم بعدم جدوى ذلك ، لهذا ركزوا اهتمامهم على تحسين علاقاتهم وتمتين صلاتهم مع الملك الفرنجي الذي قهر اللومبارد على الرغم من ان شارلمان لم يكن على رأي البابا تماما في قضية الايقونات ، ولم يوافق على ماورد من آراء في المجمع المقدس الذي اعاد الاعتبار للايقونات ايام قسطنطين السادس وايرين ، ويبدو ان السبب في هذا الموقف من القضية الدينية ارادة الملك الفرنجي أن يظهر استقلاله الديني عن بيزنطه حتى يؤكد بالتالي عدم تبعيته السياسية لها ، ولم تنجح محاولات البابا هارديان لجعله ينضم الى رأيه الديني مما جعل البابا مضطرا للتنازل عن محاولاته مع الامبراطورية ، وهكذا فان الايقونات التي اعاد لها مجمع نيقية المقدس اعتبارها واحترامها سنة ٧٨٧ م عادت لتصبح موضع الهجوم وعدم الاعتبار بنتيجة المؤتمر الديني الذي عقد سنة ٧٩٤ م في مدينة فرانكفورت تحت اشراف شارلمان ، والجدير بالذكر ان كلا المجمعين الدينيين :الذي رد فيه اعتبار الايقونات والذي هوجمت فيه الايقونات ولم تعط فيه اي قيمة دينية حضره ممثلون عن البابا هادريان،ويفسر موقف البابا الضعيف تجاه شارلمان وقبوله بايفاد ممثلين عنه لحضور مؤتمر ديني تشتم الايقونات فيه بأن البابا كان يريد التحالف مع الملك الفرنجي مهما كان الثمن ، واصبحت سياسة التحالف مع ملوك الفرنجة حجر الزاوية في سياسة من خلف هادريان من بابوات ، وكان الذي بدأ هذه السياسة البابا ستيفن الثاني وتبعه فيها هادريان الاول واستمرت في زمن خلفه ليون الثالث الذي توج الملك شارلمان امبراطورا في كنيسة القدس بطرس في روما يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م .

وكان لتأسيس امبراطورية شارلمان اثارا هامة في المحيطين السياسي والديني ، وكان العرف إذ ذاك ان تكون هناك امبراطورية واحدة كما هناك كنسية واحدة ، لذا عد تتويج شارلمان امبراطورا

خرقا لكل التقاليد وضربة للنفوذ البيزنطي ، وذلك لان بيزنطة كانت ترى نفسها الامبراطورية الوحيدة التي ورثت الامبراطورية الرومانية القديمة لذلك عدت تتويج شارلمان امبراطورا خرقا للتقاليد واغتصابا لحق من حقوقها ، اما روما فكانت هي الاخرى تعترف بفكرة الامبراطورية الواحدة ولكنها استهدفت استبدال الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية فرنجية ، وهكذا رأت روما ان عرش القسطنطينية بعد خلع قسطنطين السادس قد اصبح خاليا ولم تعترف بحكم ايرين ، وكانت روما تؤمن ان حكم العالم المسيحي يجب ان يكون لشخص واحد وان يكون للعالم المسيحي امبراطورية واحدة بيد ان هذا كان رايا نظريا ، وعمليا اصبح منذ العام ٨٠٠ في العالم المسيحي امبراطوريتان : امبراطورية شرقية (بيزنطية) اغريقية وامبراطورية غربية فرنجية لاتينية تقفان وجها لوجه ، وهكذا تم انقسام العالم المسيحي الى دولتين متباعدتين لارابط بينهما وان دان كلاهما بدين بالنصرانية فكل كان له كنيسته وايمانه وطقوسه ، يضاف الى ذلك الفروق الهائلة في الحضارة واللغة والثقافة .

ومع ان تتويج شارلمان امبراطورا في كنيسة القديس بطرس كان عملية بابوية قصد منها من بعض الوجوه انتقام البابا من ابراطرة القسطنطينية وان شارلمان نفسه لم يشترك كما قيل في اعدادها ، فإنه كان مضطرا لان يواجه ماترتب عليها من نتائج ، فقد كان عليه اولا ان يحصل من بيزنطة على اعتراف بلقبه الامبراطوري ، لانه بدون هذا الاعتراف يصبح لقبه كامبراطور لقبا غير ذي شرعية ، ولم يكن يكفي ان يحتج هو ومن معه بشغور عرش القسطنطينية لوجود امراة عليه(ايرين) حتى يصبح هو الامبراطور الشرعي ، كما انه لم يكن بامكانه ان يسم بيزنطة وامبراطورتها بالهرطقة حتى يجعل من ذلك مسوغا من اجل نيله الامبراطورية ، لذا ارسل في سنة ٨٠٢ م وفدا يمثله ويمثل البابا ليو الثالث الى القسطنطينية ويروى ان هؤلاء حملوا عرضا من شارلمان بالزواج من ايرين وذلك في سبيل توحيد شقي الامبراطورية الشرقي والغربي ولكن ماكاد هذا

الوفد يقر قراره في القسطنطينية حتى نشبت ثورة فيها وذلك في ٣١ تشرين الاول سنة ٨٠٢ ، مما عطل المفاوضات ، وكان الذين قادوا الثورة كبار رجالات الدولة وكبار الضباط ، وخلع الثوار ايرين ونفوها الى احدى الجزر حيث توفيت بعد قليل ، واختاروا نقفور وكان احد كبار الموظفين الماليين امبراطورا جديدا .

فترة حكم نقفور والمشاكل السياسية في عهده

حكم نقفور الاول بين سنتي ٨٠٢ ـ ٨١١ وكان حاكما قويا ساس الامبراطورية بحزم وقوة ، ومع انه لم يكن من المتعصبين دينيا فانه كان اورثوذكسيا مخلصا ومن المؤيدين لعبادة الايقونات ومع هذا لم يظهر اي خضوع لرجال الكنيسة بل على العكس كان يطلب منهم الخضوع للسلطة الامبراطورية . واظهر تقديسه للايقونات وتبجيله لها بتزويج ابنه وولي عهده ستوراكيوس من فتاة اثينية اسمها ثيوفانو وكانت احدى قريبات الامبراطورة المخلوعة ايرين ، وفي عهده تأزمت العلاقات مجددا بين الدولة والسلطات الكنسية ولاسيما حين عين الامبراطور مؤرخا جليلا وعالما دينيا مرموقا اسمه نقفور ايضا بطريركا على القسطنطينية بعد وفاة البطريرق تارازيوس في ٢٥ شباط سنة ٨٠٦ ، وكان البطريرك نقفور مثله مثل سلفه الراحل واسع المعرفة في الشؤون الدينية ، كتب بحوثا في الدفاع عن عبادة الايقونات ، وكان ايضا قبل توليه منصبه الديني من كبار موظفي الدولة وعرف باعتداله وعدم تعنته وفي الحقيقة كان لتعيين رجل دنيوي في منصب ديني اثاره الخطيرة ، فقد خلق هذا التعيين نوعا من شعور العداء للامبراطور في صفوف رجال الدين الذين كانوا يأملون ان يكون منصب البطريركية من نصيب زعيمهم ثيودور الستودي ، وزاد ايضا في النقمة على الامبراطور نقفور الذي اراد ان يظهر تفوق سلطانه على سلطان الكنيسة انه امر بعقد مجمع ديني يحضره بعض رجال الكنسية والدولة ، واتخذ هذا المجمع عدة قرارات جاءت تحديا لرجال اللاهوت والكنيسة ،

ولاسيما الرهبان الستوديين المتعصبين ، وهكذا اصبح العداء سافرا بين الامبراطور نقفور وبين هؤلاء الرهبان الذين اصبحوا من الآن فصاعدا عرضة لانواع مختلفة من إرهاب الدولة وضغطها . وكان اول مااهتم به الامبراطور بعد تسلمه العرش هو تحسين الوضع الاقتصادي للبلاد وتدارك الخزينة من الافلاس بسبب ماارهقها به الاباطرة السالفون من مصروفات . وقد كان لخبرته المالية اثرها في جعله يهتم بهذة الناحية بوجه خاص ، وبدأ اعماله في هذا المجال بالغاء الاعفاءات والتخفيضات الضرائبية التي كانت الامبراطورة ايرين قد منحتها للشعب ، وامر بعد ذلك باجراء تقدير عام للاوضاع المالية لشعبه ، وعلى اساس هذا التقدير الجديد رفع الضرائب بعض الشيء ، كما فرض ضرائب على اراضي الكنائس والاديرة واملاك المؤسسات الدينية الخيرية ، بالاضافة الى هذا فرض جزية على الرؤوس تجبى من كل اسرة كمجموع بحسب عدد افرادها ، واصبحت جزية الرؤوس هذه مع ضريبة الارض اهم موارد الدولة البيزنطية المالية ، وجزية الرؤوس هذه كانت موجودة قبل نقفور وكل مافعله نقفور انه فرضها على الفلاحين الذين كانوا يعملون في اراضي الكنيسة والاديرة ، وكانت هذه الفئة معفية من هذه الضريبة زمن ايرين ، وحتى يضمن جباية جميع الضرائب وعدم نقصانها ، جعل نقفور امر جمع هذه الضرائب مسؤولية جماعية ، بمعنى ان ضرائب منطقة من المناطق كانت مسؤولية الجماعة الساكنة في هذه المنطقة لا مسؤولية الفرد فقط ، فإذا تخلف الفرد عن دفع حصته من الضريبة لسبب من الاسباب فان جيرانه هم المسؤولون عن دفعها عنه .

وقد وضع نقفور بعض ممتلكات الكنيسة تحت اشراف الدولة وذلك كي يسترجع بعض اراضي الدولة التي كانت الامبراطورة ايرين قد وهبتها للكنيسة ، كما اعاد العمل بضريبة التركات والضريبة على الكنوز المكتشفة ، وفرض ضريبة على الذين يصبحون اغنياء فجأة وتكون ظروف حصولهم على الثروة ظروفا مريبة ، وجعل تجار العبيد يدفعون ضرائب على سلعهم ، واصدر قرارا بمنع الاشخاص

العاديين من تقاضي الربا على مايقرضونه لغيرهم من اموال وارباح وللدولة ان تقرض رعاياها بفائدة معينة،واجبر الامبراطور بقراره هذا اصحاب احواض بناء السفن في القسطنطينية وهم عادة فئة غنية على الاقتراض من الدولة حين يحتاجون للاموال بفائدة قدرها ٦ر١٥ بالمئة وهكذا امن موردا جديدا لخزانة الدولة المنهكة .

واهتم نقفور ايضا بتقوية النظام الدفاعي للامبراطورية وتطويره بأن فرض الخدمة العسكرية على الفلاحين وامن للفقراء منهم التجهيزات العسكرية عن طريق فرض ضريبة على القرية الواحدة يدفعها سكان القرية وتحفظ لتجهيز من تقع عليهم الخدمة العسكرية من ابنائها الذين لايملكون ثمن تجهيزاتهم ، وقد كان من نتائج هذا القانون الجديد ان اصبح لدى بيزنطة معين لاينضب من الجنود تستعمله متى دعت الحاجة ، كما انه امر ان يسرى مفعول قانون الاقطاعات العسكرية على البحارة ، اي انه خلق طبقة من البحارة الذين هم في الاساس اشخاص منحوا اراضي زراعية على الشواطيء يستغلونها في وقت السلم زراعيا وفي وقت الحرب يكونون مسؤولين عن تجهيز انفسهم عسكريا ويعملون في الاساطيل البحرية المحاربة .

واهتم نقفور ايضا بانشاء مستعمرات سكنية جديدة في المناطق التي تشكل خطرا يهدد مستقبل الدولة ، فقد اجبر مثلا بعض سكان منطقة اسيا الصغرى على بيع ممتلكاتهم هناك وامرهم بالذهاب للسكن في المنطقة السلافية من شبه جزيرة البلقان حيث اقطعوا اراضي زراعية جديدة واصبحوا من طبقة الفلاحين الجنود الذين ينضمون للجيش في وقت الحرب ويزرعون الارض في وقت السلم ، ونظام الاقطاعات الزراعية العسكرية هذا نظام قديم يعود الى قرنين مضيا ، وهكذا فان نقفور لم يبتدع شيئا جديدا بل كان ماعمله اعادة فرض قوانين واعراف قديمة كان من تقدمه من الاباطرة قد اهملوا العمل بها .

وكان لسياسة نقفور في انشاء مستعمرات سكنية جديدة ولاسيما

في البلقان اثارها وبصورة خاصة في مناطق تراقية والقسم الشرقي من مكدونية المجاور لبلغارية وحتى في اليونان التي كان العنصر السلافي قد بدأ يتسرب اليها ، منذ تاريخ الغزوات السلافية لاراضي الامبراطورية البيزنطية في القرنين السادس والسابع فانذاك اضطرت الامبراطورية الى الانسحاب من معظم اراضي شبه جزيرة البلقان،ورافق هذا الانسحاب ازدياد التدفق السلافي،وقد ظلت الأراضي البلقانية مستعمرة سلافية وبربرية بشكل عام حتى منتصف القرن الثامن ،ولكن منذ أواخر القرن الثامن واوائل القرن التاسع عاد البيزنطيون ليقووا مركزهم مجددا هناك، ففي خلال حكم الامبراطورة ايرين بدأت بيزنطة تقوم بهجمات ضد العناصر السلافية الموجودة في اليونان . وفي سنة ٧٨٣ قاد القائد ستوراكيوس جيشا كبيرا وهاجم منطقة سالونيك ومن هناك توجه الى منطقة اليونان الوسطى والبيلوبونيز واجبر القبائل السلافية الساكنة هناك على الاعتراف بسيادة بيزنطة عليها ودفع الجزية السنوية للخزينة البيزنطية .

وقد عد نصر ستوراكيوس على القبائل السلافية عملا هاما جدا لدرجة انه لما عاد من حملته المظفرة اقيمت له احتفالات ضخمة،وفي السنوات الاخيرة من القرن الثامن تآمرت القبائل السلافية النازلة في اليونان ضد الامبراطورة ايرين لاعادة الحكم لواحد من اولاد الامبراطور قسطنطين الخامس الذين كانوا منفيين في اليونان ، ولكن لم يكتب لهذه المؤامرة النجاح ، وفي مطلع القرن التاسع اعلن سلاف منطقة البيلوبونيز الثورة على الامبراطورية فهاجموا ممتلكات جيرانهم اليونانيين ونهبوها وتوجهوا لمهاجمة مدينة باتراس في سنة ٨٠٥ ، ولكن لم يكتب لهجومهم هذا النجاح فكسروا امام جيوش الدولة البيزنطية وفقدوا ممتلكاتهم وحريتهم الشخصية .

ولكن هذا الانكسار لم يثن عزم القبائل السلافية في البيلوبونيز وعادت الى الثورات على البيزنطيين بين الحين والآخر على ان

ثوراتهم جميعا اخفقت وتمكنت بيزنطة من تثبيت اقدامها في منطقة البيلوبونيز بعدما كان السلاف قد سيطروا لمدة قرنين .

وتجلت آثار عودة السيطرة البيزنطية على بعض مناطق البلقان في تنظيم مناطق هذه المقاطعة تنظيما جديا يتفق واساليب الادارة البيزنطية ، وقد اعقب هذه التنظيمات قيام النزاع بين بيزنطة وبلغاريا ، ومع ان نقفور لم يكن جنديا محترفا فقد كان له من الصفات ماجعله قائدا ناجحا لايتورع عن قيادة الجيوش بنفسه ، وقد ظهر اعتداده بنفسه كجندي منذ اليوم الاول الذي اعقب جلوسه على العرش اذ انه قطع الجزية التي كانت تدفعها ايرين للدولة العباسية ، فكان رد الخليفة هارون الرشيد على هذا ان قاد جيوشه باتجاه الاراضي البيزنطية وذلك سنة ٨٠٦ واستولى الجيش الاسلامي على بعض القلاع والحصون في بلاد الثغور وتقدم ليفتح الطوانة ، ومنها سارت فرقة لفتح انقرة فذهل الامبراطور ووجد نفسه مضطرا لأن يعود لدفع الجزية ، وزاد الخليفة العباسي في تحقير نقفور ، ففرض عليه شخصيا ان يدفع سنويا مقدار ثلاثة دنانير ذهبية وذلك مقابل مايستحق عليه وعلى ابنه من جزية سنوية . ولكن موت هارون الرشيد سنة ٨٠٩ ، وفترة الاضطراب التي اعقبت وفاته بسبب ماقام من حرب اهلية بين الامين والمأمون جعلت نقفور يستريح مؤقتا من الخطر العربي ، ويوجه اهتمامه نحو مشاكل البلقان .

ولقد كان لتحطيم قوة الافار على يد شارلمان اثره في تخفيف الضغط الافاري على العناصر البلغارية التي كانت تسكن منطقة بانونيا ونتيجة لهذا استطاع البلغار ان يمدوا مملكتهم حتى وصلت حدودها الى حدود مملكة شارلمان،واعتلى عرش المملكة البلغارية في هذه الفترة زعيم من زعماء بلغار منطقة بانونيا اسمه كروم ، وكان معروفا ببأسه وقوته وتحديه ، وكانت بيزنطة قد أقامت على طول حدودها مع المملكة البلغارية سلسلة من القلاع والحصون لتوقف اي هجوم او تسرب بلغاري الى بلادها ، وكان من اشهر هذه الحصون

حصن ديفيلتوس وحصن ادرنه وحصن فيلبه وحصن ساردیكان وفي ربيع سنة ٨٠٩ هاجم كروم حصن ساردیكا فهدمه وابـاد حـاميته عن بكرة ابيها مما دعا الامبراطور الى التوجه فورا ليسترد الحصن من البلغار وينتقم منهم ، ولكنه قبل ان يخوض معركة حـاسمة مـع كروم امضى مدة عامين في التهيؤ وتقوية جيشه ، ونقـل عناصر مـن اسيا الصغرى للسكن في المناطق السلافية من البلقان .

وفي ربيع سنة ٨١١ عبر نقفور الحـدود على راس جيش قـوي فهاجم عاصمة البلغار وخربها واحرق قصر كروم ورفض كل عروض الصلح التي عرضها البلغار وقرر ان ينتهي من البلغار نهائيا فتبـع كروم الذي فر الى الجبال ، ولكن الحـظ لم يحـالف نقفـور حتـى النهاية اذ ان كروم باغت جيش الامبراطور واحاط به وقتل الكثيرين منه وذلك في ٢٦ تموز في سنة ٨١١ ولقي نقفور مصير الكثيرين من جنده ، فقتل وقطع راسه وعمل كروم من جمجمتـه وعاء احتسى فيه الخمر وتناول منه الانخاب مع قـواده في حفـل اقـامه احتفـاء بانتصاره .

وترتب على هذه الكارثة التي لحقت بيزنطية نتائج كثيرة لم تـكن في الحسبان ، ولاسيما من حيث فقـدانها مـكانتها واعتبـارها بين الامم ، اذ انه لم يسبق حتى الان ان ذبح امبراطور بيزنطي من قبل البرابرة اللهم الا الامبـراطور فـالانس الذي ذبـح على يد القـوط الغربيين سنة ٣٧٨ في موقعة قرب ادرنة . وهكذا انقلب هرب كروم وتوسله من اجل الصـلح الى نصر سـاحق جعله يحلم بـانتصارات جديدة على بيزنطة مما سيسبب الكثير من المتاعب لها .

وكلفت هذه الموقعة الامبراطور نقفور حياته ، وجـرح ابنه وولي عهده ستوراكيوس ولكن هذا الابن تمكن من الفـرار مـع عدد مـن اتباعه الى ادرنة حيث اعلن من قبل اتباعه امبراطورا وخلفا لابيه ، غير ان هـذا الاعلان لم يكن الا مـن قبيل الاحتياط لان جـراح ستوراكيوس كانت مميتة وكان الامل بشفائه ضـعيفا ، ولذلك نقـل سـتوراكيوس الى القسـطنطينية حيث كان مقـررا ان يشـترك في

انتخاب خليفته قبل وفاته ، وكان اقرب المرشحين للفوز بالعرش اخو زوجة الامبراطور المحتضر لانه لم يكن له ولد ، وكان اسمه ميخائيل انغاب وقد ايد ترشيح ميخائيل الجيش والبطريرك نقفور وعارض هذا الترشيح زوجة ستوراكيوس ثيوفانو الاثينية التي كانت تأمل ان يكون العرش من نصيبها كما حدث بالنسبة للامبراطورة ايرين.وعندما بدا ان الصراع حول العرش سيطول قام الجيش في ٢ تشرين اول لعام ٨١١ بحركة اعلن اثرها عن اختيار ميخائيل امبراطورا ووافق على هذا الاعلان مجلس الشيوخ والبطريرك نقفور ، اما ستوراكيوس فقد انسحب الى احد الاديرة حيث بقي مدة ثلاثة اشهر مات بعدها .

كان ميخائيل الاول الذي حكم بين سنتي ٨١١ ـ ٨١٣ حاكما ضعيفا يسهل التأثير عليه وتنقصه الشجاعة ، وقد تميز عهده بالتبذير والاسراف ، وقد الغى هذا الامبراطور التدابير التي اتخذها سلفه نقفور والتي كانت تهدف الى تقوية الوضع الاقتصادي للامبراطورية ، وبدأ منذ مطلع عهده يتقرب بالهبات المالية الى رجال الجيش والبلاط والكنيسة ، وكان من اشد المؤمنين حماسا بعبادة الايقونات كما كان متعلقا بالكنيسة بشكل عام ومستعدا للوقوع تحت سلطانها ، وفي زمنه ازدهر المذهب الاورثوذكسي واعيد الرهبان الستوديين من المنفى بعدما قبلت كل طلباتهم ولقد عادوا اقوياء ، وكان من مظاهر ازدياد نفوذهم أن اصبح زعيمهم ـ الأب تيودور ـ صاحب الكلمة الاولى في البلاد لافي المسائل الدينية فحسب بل في مسائل السياسة الداخلية والخارجية ايضا .

وفي زمن ميخائيل الاول أعيد النظر في امر علاقة الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية شارلمان وكان الامبراطور نقفور يتبع سياسة تجاهل تجاه شارلمان ومطالبه باللقب الامبراطوري لانه كان يعرف ماقد ينطوي عليه التعامل مع شارلمان من مضاعفات ، حتى أنه منع البطريرك نقفور من ان يرسل لبابا روما الرسائل الدينية المعتادة لان هذا البابا هو الذي توج شارلمان امبراطورا وكان نقفور

يظهر نحو خصمه الكارولنجي والبابوية التي أيدته كل عداء وتشدد.

وفي الوقت نفسه كانت قوة شارلمان في ازدياد ، ومنطقة نفوذه تتوسع باستمرار ، وأخذ يضم الى اراضي مملكته بلادا هي في الاساس من ممتلكات بيزنطة ، ولما تسلم ميخائيل الأول العرش اراد أن يستعيد هذه الاراضي التي فقدتها بيزنطة ، ولكنه ما كان ليستطيع أن يستردها حربا ، لذلك اختار أن يعترف بلقب شارلمان كامبراطور مقابل ان تعاد له الاراضي التي سلخت من بلاده وبناء عليه أعلن الممثل البيزنطي في أخر سنة ٨١٢ م اعتراف دولته بشارلمان كامبراطور .

وهكذا اصبح كما سلف بنا القول : امبراطوريتان مسيحيتان في اوروبا واحدة غربية واخرى شرقية ، ويرى بعض الباحثين أن اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان امبراطورا لم يكن الا من قبيل ماكان يحدث في القرنين الرابع والخامس الميلاديين حين كان هناك امبراطوران واحد في الشرق وواحد في الغرب يحكمان حكما مشتركا في امبراطورية واحدة ، وهكذا لم يكن اعتراف سنة ٨١٢ اعترافا بامبراطور جديد ولكن اعترافا من ميخائيل الاول بزميل له (شارلمان) يشاركه في الحكم وذلك حفاظا منه على فكرة وحدة الامبراطورية ، وهذا الراي ـ بلاشك ـ خاطيء لان اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان لم يكن يتضمن في الواقع اكثر من اعترافه به امبراطورالا امبرطورا على الرومان،وشارلمان نفسه كان انذاك يتجنب أن يذكر إلى جانب اسمه كلمة امبراطور الرومان • ولهذا ظل البيزنطيون يرون أنهم وحدهم أصحاب الحق في لقب امبراطور الرومان .

وجاء اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان نتيجة لضغف شخصيته وللظروف الدولية السيئة التي كانت تمر بها بيزنطة بعد كارثة سنة ٨١١ •

اما التهديد والخطر اللذان كانا يتربصان ببيزنطة من جهة

البلقان فقد جعلاها تشعر بالعجز عن القيام بأي عمل عسكري ضد دولة الفرنجة في الغرب ، وفي ربيع سنة ٨١٢ احتل كروم خان البلغار مدينة ديفلتوس على البحر الاسود وخرب حصونها ونقل سكانها الى داخل مملكته ، وقد أدى احتلال ديفلتوس الى انتشار الذعر بين سكان المنطقة والتجأ الكثيرون منهم الى الهرب ، وبعد هذه المعركة وجه كروم الى بيزنطة انذارا يعرض عليها فيه الصلح ، ولما تمهلت بيزنطة في الرد على هذا العرض هاجم ميناء ميزميريا على البحر الاسود واحتله في تشرين ثاني من سنة ٨١٢ م وقد استولى باحتلاله لهذا الميناء على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما استولى على كمية وافرة من المتفجرات التي كانت تعرف باسم النار اليونانية وقد نصح ميخائيل بعض مستشاريه ومنهم البطريرك نقفور ، بقبول شروط الصلح التي عرضها كروم ولكن كان هناك آخرون على رأسهم الاب الستودي تيودور رأوا أن تستمر الحرب ضد البلغار بشدة،وقد رجح رأى جماعة الاب تيودور ، وفي حزيران ٨١٣ سار جيش بيزنطي كبير للقاء القبائل البلغارية المهاجمة والتقى بهم في معركة قرب مدينة أدرنه ، وبدأت المعركة في الثاني والعشرين من الشهر نفسه واشتركت فيها القوات البيزنطية لمقاطعتي تراقية ومكدونيا ، أما القوات التي جاءت من آسيه الصغرى وكان على رأسها القائد ليون الأرمني حاكم مقاطعة الاناضول فقد رفضت الاشتراك في القتال ، وتركت ساحة المعركة وولت الادبار هاربة ، وقد كان لهرب هذه القوات أثره في اضعاف الروح المعنوية في الجيش البيزنطي مما أدى الى نصر ساحق لكروم وجيشه .

كان لهذا النصر البلغاري الجديد أثره في زعزعة سلطة الامبراطور ميخائيل الاول ، وفي احياء سياسة العداء للايقونات ، وفي الشهر التالي تموز بعد انكسار الجيش البيزنطي أمام البلغار بقليل خلع الامبراطور ميخائيل الأول وتوج عوضا عنه ليون الارمني الذي رفض أن يشترك في القتال ضد البلغار وكان ليون الارمني الذي عرف بالخامس(٨١٣ ـ ٨٢١)عسكريا من أصل شرقي ،

يكره بالوراثة عبادة الأيقونات وقد حاول أن يحيي مجد دولته العسكري وأن يعيد سياسة العداء للايقونات وذلك لانه أمن واتباعه بأن مالحق الامبراطورية من اخفاق عسكري كان نتيجة لاستلام حزب اصدقاء الايقونات الحكم •

وما كاد ليون الخامس يستلم العرش حتى واجهته مشاكل عسكرية ملحة فقد استفاد كروم من انتصاره على ميخائيل الأول ليقوم بهجوم جديد فحاصر مدينة أدرنة ، وسار بجيوشه ليحاصر القسطنطينية ولم تكن قد مضت الا أيام قلائل على اعتلاء الامبراطور الجديد العرش ووجد كروم نفسه بعد حصار طويل عاجزا عن أن يقتحم اسوار القسطنطينية ، هذه الاسوار التي كانت دوما سدا منيعا في وجه كل اعداء بيزنطة ، فاضطر لان يطلب من الامبراطور عقد اجتماع بينهما للتفاوض من اجل الصلح ، وجاء كروم الى مكان الاجتماع ، كما نص الاتفاق بدون سلاح ، ولكن الامبراطور البيزنطي حاول الغدر به وقتله ولم ينقذه الا ذكاؤه وسرعة خاطرة فهرب قبل ان تنفذ المؤامرة ضده ووصل الى حيث كا ن يعسكر جنده، فعاد بهم الى أدرنه مصمما على الانتقام من محاولة غدر البيزنطيين به فكان يحرق ويدمر كل ما يمر به من مدن وقرى ، ولما وصل الى أدرنه هدمها تهديما كاملا ونقل سكانها وسكان القرى المجاورة لها الى ماوراء الدانوب ، وفي الربيع زحف كروم على رأس جيش جديد لحصار القسطنطينية ، ولكن الأقدار انقذت بيزنطة هذه المرة أن كروم توفي فجأة في ١٣ نيسان ٨١٤ م نتيجة انفجار دماغي .

وخلف كروم في زعامة البلغار زعيم قوي اخر اسمه اومورتاغ ، وكانت اهداف هذا الزعيم الجديد تتلخص في أمرين أولهما تقوية مواقفه في المنطقة الشمالية الغربية وثانيهما تقوية الوضع الداخلي وتثبيت حكمه في الداخل .

لذا عقد هدنة مع بيزنطة مدتها ثلاثين عاما ونصت هذه الهدنة على أن تقسم مقاطعة تراقيا بين بيزنطة وبلغاريا ، وهكذا وبعد فترة طويلة من الاحداث العاصفة في منطقة البلقان ساد السلام في هذه

المنطقة ، وأخذت الآمال بالاستقرار تداعب مخيلة سكانها ، كذلك في الشرق كانت بيزنطة تنعم بفترة هدوء نسبية سببها وفاة الخليفة هارون الرشيد وقيام الصراع بين ولديه الامين والمأمون مما شغلهما عن كل عمل خارجي ، وهكذا نعمت بيزنطة في هذه الفترة بشيء من الهدوء على طول حدودها .

وحاول ليون الخامس خلال فترة السلم هذه أن ينفذ خططه المعادية للايقونات ، فلم تكد الأوضاع تهدأ قليلا بعد وفاة كروم المفاجيء حتى أمر العالم الديني يوحنا فراما تيكوس بأن يعد العدة لعقد مجمع ديني تبحث فيه قضية الايقونات وتصدر عنه قرارات معادية لها ، وكان يوحنا فراماتيكوس من الشخصيات الدينية المعروفة بعدائها للايقونات ، وقد حاول الامبراطور ان يستغل سياسته الدينية ليجمع حوله جميع العناصر الناقمة على الاوضاع السالفة ولاسيما ضمن المحيط الديني ، وكان ليون الخامس قبل أن يعتلي العرش قد اعطى البطريرك نقفور تعهدا مكتوبا بأنه لن يقوم بأي تغيير في المناصب الدينية غير ان هذا البطريرك وجد نفسه بعد اعتلاء الامبراطور الجديد العرش وسط دوامه من المشاكل الدينية اثارتها سياسة الامبراطور المعادية للايقونات ، وقد قربت هذه المشاكل بينه وبين عدوه القديم تيودور الستودي لانهما عارضا سياسة الامبراطور الدينية ، وقد تزعم البطريرك نقفور والراهب تيودور الستودي حملة المعارضة ضد الامبراطور وكتبا البحوث والمقالات في الرد على فكرة تدخل الدولة في الشؤون الكنسية غير أن هذه الكتابات لم تجد نفعا بل على العكس ادت الى أن امر ليون الخامس بنفي تيودور وعزل نقفور من كرسي البطريركية .

وفي اليوم الاول من نيسان ٨١٥ انتخب تيوديوس ميليسينوس وهو أحد رجال البلاط النبلاء وقريب احدى زوجات الامبراطور السالف قسطنطين الخامس بطريركا للقسطنطينية .

وبعد تعيين هذا البطريرك بقليل دعا إلى عقد مجمع ديني تحت رئاسته في كنيسة ايا صوفيا ، وكان من جملة قرارات هذا المجمع

رفض ماجاء في قرارات مجمع نيقيه المسكوني الذي عقد سنة ٧٨٧ وتثبيت مقررات المجمع الديني المقدس المعادي للايقونات والذي عقد سنة٧٥٤ م ومع أن أعضاء المؤتمر الديني هذا اعترفوا بأنهم لايعدون الايقونات اصناما تعبد ولكنهم مع هذا رفضوا تقديسها ورأوا ضرورة تهديمها ، والواقع أن قرارات هذا المؤتمر كانت ترديدا واضحا لما جاء في مقررات المجمع الديني المعادي للايقونات الذي عقد سنة ٧٥٤ م وصيغ في جمل غامضة ليس لها معنى واضحا ، واذا صح هذا عن قرارات المجمع الديني الذي نحن بصدده فهو يصح على جميع ماتم من اعمال الاحياء للحركة المعادية للايقونات في هذا القرن وذلك لأن الحركة المعادية للايقونات زمن الاباطرة ليون الثالث وقسطنطين الخامس كانت حركة تتصف بالقوة والتصميم في حين ان الحركة الحالية كانت حركة ضعيفة تعتمد على تقليد الاراء السالفة ، ولكن رغم كل شيء سار الامبراطور ليون الخامس قدما في سياسة اضطهاد العناصر المعادية لآرائه الدينية ، ويلاحظ المؤرخون أن أعمال ليون الخامس كانت تتصف دوما بخوفه من فقدان عرشه ، وهذا الخوف هو الذي أملى عليه الكثير من التصرفات القاسية ولاسيما في السنين الاخيرة من حكمه ، وبالرغم من كل ماتخذه من احتياطات لحماية شخصه فان مخاوفه قد تحققت اذ انه في يوم عيد الميلاد لعام ٨٢٠ وبينما كان يحضر قداس هذا العيد في كنيسة أيا صوفيا اغتيل وهو واقف أمام المذبح من قبل اتباع زميله القديم في السلاح ميخائيل العموري الذي حل محله على عرش بيزنطة تحت اسم ميخائيل الثاني .

الاسرة العمورية ـ(٨٢١ ـ ٨٦٧)

كان ميخائيل الثاني الذي حكم بين سنتي ٨٢٠ ـ ٨٢٩ وهو مؤسس حكم الأسرة العمورية جنديا خشن الطباع تنقصه اللياقة والثقافة ، ولكنه الى جانب ذلك كان حسن الفهم قوي العزيمة يتصف بالاعتدال عامة ، وقد خمدت خلال حكمه الخلافات الدينية

وتوقفت سياسة اضطهاد العناصر الموالية لعبادة الايقونات ، واعيد من المنفى البطريرك نقفور وتيودور الستودي ـ وغيرهما من الذين نفوا ايام الامبراطور ليون الخامس ، ولكن الامبراطور ميخائيل الثاني لم يسر في سياسته الدينية شوطا يرضي الاورثوذكس المتعصبين رضاءا تاما اذ انه لم يعد للايقونات ما كان يريده لها اتباعها من اجلال ،واتبع هذا الامبراطور سياسة دينية وسط ، فهو لم يمنح تأييده لا لمقررات مجمع نيقية المقدس الثاني ولا لمقررات المجمع الديني الذي عقده سلفه الامبراطور ليون الخامس ،وكان ميخائيل الثاني في الاصل من فريجيا ، المنطقة المشهورة بعدائها للايقونات ، وهو نفسه كان يضمر العداء لها ، ولكنه لم يصرح بهذا العداء ، ويظهر عداء الامبراطور للايقونات من رسالة كتبها الى لويس التقي يشكو له فيها ، ويعلن سخطه على عبادة الايقونات ، كما يظهر سخط الامبراطور عليها من حقيقة كونه عهد بتربية ابنه وولي عهده تيوفيلوس إلى يوحنا غراما تيكوس احد اعداء الايقونات اللدودين ، والى جانب هذا فانه حين شغر كرسي البطريركية لم يعين لهذا الكرسي شخصا من انصار الايقونات بل عين انتوني الذي كان على وفاق مع يوحنا غراما تيكوس ، ومع هذا كان ميخائيل يدرك أن حركة العداء للايقونات لم تعد حركة يؤمل لها النجاح ، فتعامل معها بحذر كبير .

وكانت اهم الحوادث الداخلية التي وقعت زمن ميخائيل الثاني هي الحرب الاهلية الضارية التي اثارها شخص سلافي من اسيا الصغرى اسمه توماس ، كان في وقت من الاوقات زميلا في السلاح للامبراطور ويرجح أن ثورة توماس كانت بتحريض الخليفة المأمون الذي كان يريد اثارة الاضطراب داخل الامبراطورية لصالحه ، وقد تجمع لتوماس هذا جيش كبير من المقاطعات الشرقية منذ ايام الامبراطور ليون الخامس • وكان قوام جيش توماس اعداد كبيرة من الارمن وسكان اسيا الصغرى وبعض العرب والفرس • ذلك أن هذه المنطقة بأخلاط السكان التي كانت تقطنها وبالعنصر السلافي الذي شكل نسبة كبيرة من سكانها كانت ارضا صالحة لمثل هذه

الثورة ، وقد قويت شوكة توماس كثيرا لادعائه بأنه هو الامبـراطور قسطنطين السادس الذي انتزع منه عرشه بشـكل غير شرعي وأنه نصير الايقونات الذي يريد أن يعيد لها قداستها •

واهم ما يجلب الانتباه في هذه الثورة هو الجانب الاجتماعي فيها اذ أن توماس أعلن أنه الانسان الذي سيحقق للفقراء المساواة مـع الاغنياء وأنه سيعمل على تخفيف اعبائهم ، وقد سـاعده هـذا على جلب اعداد ضخمة من جماهير الشعب إلى جانبه ، هذه الجمـاهير التي كانت تنوء باعباء العوز الاقتصادي ، وهكذا رفـع انذاك العبيد أيديهم في وجوه سادتهم كما رفع الجند أيديهم في وجـوه قـوادهم ، اذن قامت هذه الثورة على اسس عرقية ودينية واجتمـاعية وعمـت معظم اراضي آسيا الصغرى ، وقد تـوج بـطريرك انطـاكية الثـائر توماس امبراطورا وتتويج بطريرك انطـاكية لتـوماس امبـراطورا يؤخذ كدليل على تأييد الخليفة الاسلامي لتوماس لان انطاكية كانت تابعة للخلافة الاسلامية ولا يستطيع بطريركها أن يقـوم بـالتتويج دون موافقة الخليفة ، وقد أعلنت قبرص ولاءها لتوماس مما ساعده على السيطرة على بعض القوى البحرية وبـالتالي سـهل له مهمـة العبور الى الجزء الاوروبي من الامبراطورية حيث امكنه أن يجمـع تحت لوائه العناصر المحبة للايقونات هناك ، وسار تـوماس بقـواه لحصار القسطنطينية في كانون الاول من عام ٨٢١ ودام حصـاره لها اكثر من عام . ولكن لم يؤت هـذا الحصـار الثمـار التـي كان يرجوها توماس بـل على العـكس أدى إلى أضـعاف قـوةالجيش الثائر ، وساعد ميخائيل الثـاني كثيرا كون جيشـه منظمـا وجيش خصمه تعمه الفوضى ، الى جانب هذا فقد جاء خان البلغـار لنجـدة الامبراطور ميخائيل الثاني ، وكما حدث من قبل زمن ليون الثـالث حين حاصره العرب وجاء البلغار لنجدته ، فـان اومـورتاغ خـان البلغار الحالي وابـن كروم عدو بيزنطـة اللدود جـاء الآن لنجـدة ميخائيل الثاني و ساعده على التغلب على خصـومه وهـكذا تمـكن الامبراطور في ربيع سنة ٨٢٣ أن يجبر توماس على رفع الحصـار

عن القسطنطينية ومطاردته حتى تمكن ميخائيل من القبض عليه وقتله بعد أن عذبه عذابا فظيعا ٠

أمن هذا النصر لميخائيل الثاني السيادة على البلاد ، ولكن الحرب الداخلية الطويلة أضعفت بيزنطة الى حد بعيد وأظهرت أن الناس لايشكون فقط من المشاكل الدينية بل من الظلم الاجتماعي ايضا ، يضاف الى هذا أنه بالرغم من ان الخلافة الاسلامية التي ساعدت توماس في ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من جانبها ضد بيزنطة لاسباب عديدة فان حملات عربية اخرى تمكنت كما رأينا من أن تستخلص جزيرة كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادتها وهكذا فقدت بيزنطة أهم قاعدة بحرية لها في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، ولم تنجح محاولات ميخائيل الثاني ومن خلفه من الاباطرة لاسترداد كريت وظلت هذه الجزيرة لمدة قرن ونصف القرن بأيدي المسلمين يقومون منها بغاراتهم البحرية على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في المنطقة المجاورة .

ولم يكتف العرب في هذه الفترة باحتلال كريت بل وجهوا ـ كما اوضحنا ـ جيوشهم ضد صقلية بقصد فتحها ، وهكذا أخذت سيادة بيزنطة في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي تتناقص وتزول بالتدريج ، ويرجح أن سبب هذه الانكسارات هو أن بيزنطة منذ زوال سلطان الخلفاء الامويين الذين أولوا أمر الاسطول والمعارك البحرية قسطا هاما من عنايتهم لم تعد تهتم بتقوية اسطولها مما ادى الى هذه الخسائر التي المت بها .

وبعد وفاة ميخائيل الثاني خلفه ابنه ثيوفيلوس على عرش القسطنطينية ليحكم فترة من الزمن امتدت بين سنتي ٨٢٩ ـ ٨٤٢ ، وعلى عكس ابيه الذي كان لايعرف من الكتابة والقراءة الا النذر اليسير ، كان ثيوفيلوس ذا ثقافة عالية وحب شديد للعلم والفن ، ولم تكن ثقافة الامبراطور الجديد محدودة الجوانب ومقصورة على معطيات الفكر البيزنطي بل تعدتها الى

الافاق الفكرية العالمية اذ اننا نرى أن الامبـراطور كان متـأثرا الى أبعد الحدود بالنهضة الفكرية والفلسفية التي كانت مزدهرة في بلاط بغداد تحت ظل الخلفاء العباسيين ، وكان تيوفيلوس معجبـا أشـد الاعجاب بالفن الاسلامي كما كان من الد اعداء الايقونات ، ويعـزو المؤرخون هذا الاعجاب وهذا العداء الى تأثير مـؤدبه يوحنا غرامـا تيكوس ، وقد شهد حكمه أخر موجة من موجات العداء للايقونات ، كما يعرف عصره بأنه العصر الذي كان فيه للثقافة الاسلامية اقـوى الاثر في العالم البيزنطي.

لم يكن تيوفيلوس حاكما فـذا ولكنه ذا شـخصية ممتعـة، وكان الجانب العاطفي يطغى على شخصيته ، وكمثال على هذه العـاطفة يمكننا أن نذكر تعلقه بالافكار المعادية للايقونات مع أن هذه الافـكار كانت تحتضر ولا أمل في نجـاحها ، كمـا يمـكننا أن نذكر تعلقـه وحماسه للثقافة والفن العربيين مـع أنهمـا مـن نتـا ج اعدائه ، وصـحيح انه كان قـاسيا في معـاملته لبعض الذين خـالفوا اراءه الدينية ، ولكن هـذه القسـوة لم تثـر عداء الناس له لأنه كان ذا شخصية محببة أحيطت في أذهان الناس بـالاساطير والخـرافات ، لقد اراد ثيوفيلوس أن يكون حاكما مثاليا وكان يحـركه حس عميق ورغبة صادقة في نشر العدالة بين أوسـاط شـعبه ، وكان هـارون الرشيد مثله الاعلى من بين الحكام المعاصرين ، فكان يسعى جاهدا لأن يقلده في اعماله ، فكان يجوب أحياء العاصمة ويتصل بـالفقراء والضعفاء ويستمع الى مطالبهم ويقتص لهم من خصومهم مهما علت مرتبتهم أو وظيفتهم .

وفي زمن تيوفيلوس جرت اصلاحات ادارية هامة ولاسيما تقسيم الامبراطورية الى مقاطعات جديدة وسارت الحركة الاصلاحية شوطا أبعد من الشوط الذي سارته في عهد اسلافه ففـي حين أن اسـلافه اهتموا بالتقسيمات الجديدة في منطقة البلقان ،فقد اهتم هـو بـأمر المقاطعات الشرقية والشمالية وأعاد النظـر في تقسـيماتها الادارية فأوجد مقاطعتين جديدتين هما بـاغلاغونيا وكالديا ليقـوى مـركز

بيزنطة على البحر الاسود كما أوجد ثلاث وحدات ادارية وعسكرية جديدة في المنطقة الجبلية المتاخمة للحدود العربية

واهتم ثيوفيلوس كما قلنا بتنظيم الممتلكات البيزنطية الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود فأوجد في هذه المنطقة مقاطعة مركزها مدينة مرسون يحكمها حاكم عسكري برتبة ستراتيغوس .

وعلى الرغم مما أبداه الامبراطور ثيوفيلوس من حب واحترام للثقافة والفن العربيين كما ذكرنا فان عهده بكامله كان عهد كفاح وحرب ضد العرب المسلمين فقد كان الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) مشغولا أول الامر ـ كما نعلم ـ بالفتن والثورات والمشاكل الداخلية التي شغلت الفترة الاولى من حكمه بكاملها ،ولكن منذ عام ٨٣٠ فما بعد شعر هذا الخليفة بعد أن سيطر على الاوضاع في بلاده انه لابد ان يعود لمقارعة البيزنطيين بعد ان توقف الجهاد ضدهم لفترة طويلة عقب وفاة أبيه الرشيد ، وقد استغل المأمون المتاعب التي كانت تتخبط فيها الامبراطورية البيزنطية وعدم استطاعتها توجيه كافة قواتها الى اسية الصغرى بسبب هجمات عرب تونس على صقلية وفتحهم لعاصمتها بلرم ، واستغل المأمون هذا فوجه قواته الى اسية الصغرى ليناوش ثيوفيلوس ويشتبك معه في قتال ، وكان النصر في هذه المعارك بين ثيوفيلوس والعباسيين سجالا يلوح مرة لثيوفيلوس فيقيم الاحتفالات الضخمة في القسطنطينية ابتهاجا بذلك ، ويلوح مرات كثيرة اخرى لخصومه المسلمين فيتراجع عن الحرب ويرسل الوفود الى بغداد مثقلة بالهدايا طالبة الصلح من الخليفة ، وقد ازداد شعور ثيوفيلوس بالخطر العربي زمن الخليفة المعتصم الذي بعد أن سوى المشاكل الداخلية في مطلع حكمه قاد حملة ضخمة ضد بيزنطة وذلك سنة ٨٣٨ م وكانت حملة المعتصم هذه بخلاف ما تقدمها موجهة الى الممتلكات البيزنطية في قلب اسية الصغرى لا إلى الحصون التي كانت على الحدود بين الدولتين فقط ، فقد توجه قسم من جيش المعتصم الجرار باتجاه الشمال الغربي وكسر الجيش البيزنطي الذي كان يقوده الامبراطور ثيوفيلوس نفسه في موقعه رهيبة عند

موقع دزيمول او دزمانا • وذلك في ٢٢ تموز سنة ٨٣٨ م في حين هاجم بقية الجيش العربي وعلى راسه المعتصم نفسه عمورية في ١٢ ـ اب من السنة نفسها وخربها تخريبا تاما ، وكان لاحتلال عمورية وتهديمها وقع الصاعقة على بيزنطة وذلك لان هذه المدينة كانت اكبر القلاع واهمها في منطقة الاناضول ، ولانها كانت مسقط راس البيت الحاكم انذاك في بيزنطة والذي انحدر منه تيوفيلوس نفسه • وحين شدد عرب تونس في الوقت نفسه قبضتهم عليه في الجزء الغربي من امبراطوريته ، وجد ثيوفيلوس نفسه مضطرا للاستنجاد بالفرنجة والبندقية •

وفي زمن هذا الامبراطور حاول اعداء الايقونات محاولتهم الأخيرة للقضاء عليها ولكن دونما نجاح يذكر،ففي سنة ٧٣٧ عين تيوفيلوس العالم الديني المعادي للايقونات يوحنا غراماتيكوس بطريركا على القسطنطينية ، فبدأ هذا حملة جديدة ضد مؤيدي الايقونات ، وكما حدث من قبل كان الهجوم موجها ضد جماعة الرهبان الذين كانوا من اشد انصار الايقونات حماسا ، وقد اتخذ هذا الهجوم اشكالا مختلفة من الوان التعذيب والجور ، ومع أن الامبراطور وصديقه البطريرك استعملا ماكان في وسعهما من اساليب لانهاء عبادة الايقونات فانه كان واضحا أن جهدهما لن يكتب له النجاح في اسيا الصغرى التي كانت في يوم من الايام من أشد اعداء الايقونات حماسا •

واقتصر تأييد الامبراطور في سياسته الدينية هذه على العاصمة وحدها أما المقاطعات فقد كانت كلها من انصار الايقونات .

وفي العشرين من الشهر الاول سنة ٨٤٢ توفي الامبراطور ثيوفيلوس وبموته ماتت الحركة المعادية للايقونات ، مما انقذ بيزنطة من ازمة دينية كانت تعصف بها ، وهيأ لها انتهاء هذه الأزمة عهدا جديدا من الازدهار .

وكانت فترة الصراع من أجل الايقونات فترة حاسمة بالنسبة للتطور الروحي للامبراطورية تعادل في اهميتها ونتائجها الصراع مع

العرب الذي قرر مستقبل بيزنطة من الناحية السياسية ، وكما رأينا فان الامبراطورية لم تكد تنعم بشيء من الهدوء والسلم في ميادين القتال مع العرب حتى قامت في داخلها معركة دينية ضارية تمركزت حول عبادة الصور ، وكان معنى انهزام الدولة أيام ثيوفيلوس في المعركة الدينية ضد الايقونات أن آثار هذا الانهزام ستظهر واضحة جلية في الميدان الثقافي أكثر من أي ميدان آخر • اذ أن انتصار عبادة الصور كان يعني انتصار المفاهيم الدينية والثقافية الاغريقية وانخزال المفاهيم الاسيوية الشرقية التي تبنت العداء للصور ، لقد اصبحت بيزنطة بنتيجة انتصار مؤيدي الصور والايقونات امبراطورية اغريقية تحتل مكانه ثقافية فريدة هي وسط بين الشرق والغرب .

وشرعت بيزنطة بعد أزمة الايقونات تستقبل عصرا جديدا تميز بالعظمة في الميدانين الثقافي والسياسي • وكانت بداية هذا العصر الجديد لافي زمن الاسرة المكدونية بل في أواخر أيام حكم الاسرة العمورية ، أيام الاباطرة ميخائيل الثالث،وبارداس،وفوقاس ، وقسطنطين الذين كانوا من أعظم الحكام الذين شهدتهم القسطنطينية .

وكان من نتيجة ازمة الايقونات قلة اهتمام الدولة بأمور السياسة الخارجية وانصرافها عن التفكير في انشاء امبراطورية عالمية تكون عاصمتها القسطنطينية كما كان الحال فيما مضى وانهيار مركزها الذي كانت تحتله في الجزء الغربي من العالم الاوروبي ،وقد زاد التباعد بين بيزنطة والغرب السياسة الدينية للاباطرة الذين عادوا الايقونات وقلة اهتمام هؤلاء الاباطرة بالغرب بشكل عام الأمر الذي ادى في النهاية إلى تتويج شارلمان امبراطورا من قبل البابا • والملاحظة الهامة في هذا المجال هي انه اذا كان صحيحا أن الامبراطورية البيزنطية في هذه الفترة قد اضاعت الكثير من هيبتها في الغرب فانه صحيح ايضا أن الكنيسة الرومانية (البابوية) قد تعرضت للكثير من المتاعب في الشرق لاسيما زمن الامبراطور ليون

الثالث الذي الحق ببطريرك القسطنطينية الجزء الأكبر من البلقان وجنوبي ايطالية وجعل سكان هذه المناطق يتبعونه دينيا بعد أن كانوا من رعايا البابوية في روما • ولكن مركز القسطنطينية الديني ومكانتها كمنافسة حقيقية لروما لم يثبت الا بعد أن انتهت ازمة الايقونات، وكما كان قيام الامبراطورية الفرنجية في الغرب نكسه لآمال بيزنطة في أن تكون لها السيادة السياسة على أوروبا فان اتساع النفوذ الديني لبطريركية القسطنطينية كان أيضا نكسة لآمال البابوية التي كانت لاتؤمن بوجود منافس لها في ميدان الزعامة الدينية ، وكان المجال الهام لاضطهاد نفوذ بيزنطة الديني بعد ازمة الايقونات ان بطريركية القسطنطينية اخذت على عاتقها امر تنصير العناصر السلافية الجنوبية والشرقية .

وهكذا نرى أن التوسع السياسي والعسكري قد تبعا التقدم والاستقرار في مجال الثقافة والعقيدة ، فالامبراطورية التي كانت زمن ازمة الايقونات تقف موقفا دفاعيا ضعيفا أمام العرب المسلمين والبلغار استطاعت بعد انتهاء هذه الازمة أن تمد حدودها في الشرق بعد قتال عنيف ، وأن تعيد سلطانها من جديد على عموم شبه الجزيرة البلقانية ، كما استطاعت أن تستعيد هيبتها في منطقة البحر المتوسط بعد أن نقصت هذه الهيبة كثيرا ابان الأزمة الدينية . وساعدها على هذا ماحل بالدولة العباسية بعد المتوكل ، واهمال هذه الدولة القارية العاصمة شؤون البحر والأساطيل .

لقد تم اعادة الاعتبار للايقونات بعد موت ثيوفيلوس على يد امراة كما حدث تماما في نهاية القرن الثامن زمن الامبراطوره ايرين ، فقد صادف حين وافت المنية الامبراطور ثيوفيلوس أن كان ابنه ووريثه ميخائيل الثالث (حكم بين سنتي ٨٤٢ ـ ٨٦٤)لايتجاوز السادسة من عمره فاصبحت أمه ثيودورا وصية عليه ونائبة عنه في حكم الامبراطورية وقد شاركت أخته تقلا أمها في حكم الامبراطورية نيابة عن أخيها الامبراطور الصغير فظهرت صورة الأخت مع أمها.

واخيها على العملة ، وحملت القرارات التي صدرت اسمها جنبا الى جنب كل من اسم الامبراطور وامه ، وقد شكل مجلس ليساعد ثيودورا في حكم الامبراطورية نيابة عن الامبراطور الصغير كان اهم اعضائه اخوتها (اي اخوة ثيودورا) بارداس وبيتروناس وعمها القاضي سرجيوس نيستباتس وغيرهم ، وكان اول القضايا التي اوكلت الى هذا المجلس لحلها بالتعاون مع بطريرك القسطنطينية هي قضية اعادة الاعتبار لعبادة الايقونات . والطريف في الأمر أن أعضاء هذا المجلس الذين كانت أولى واجباتهم وأهمها اعادة تقديس الصور كانوا جميعا من المقاطعات الشرقية التي رفعت راية الحرب ضد الايقونات في الماضي ، فثيودورا كما هو معلوم من مقاطعة بافلاغونيا ومن أصل ارمني شرقي . وحتى يعيد مجلس الوصاية على العرش الاعتبار للايقونات كان لابد له أول الأمر من عزل يوحنا غراماتيكوس من منصب بطريرك القسطنطينية وتنصيب مينوديوس بطريركا ، وبعد هذا أصدر المجلس قرارا في شهر آذار سنة ٨٤٣ أعاد بموجبه العمل بعبادة الايقونات كما كان الحال في الماضي .

وفي ذكرى هذا القرار تحتفل كنيسة الارثوذكس كل عام وفي أول احد من أحاد فترة الصوم بعيد تسميه (عيد الاورثوذكسية) وهو في الحقيقة تخليد لذكرى الانتصار على الحركة المعادية للايقونات وغيرها من الهرطقات القديمة ، وقد انهى قرار اعادة الاعتبار للايقونات فترة طويلة من الصراع الديني دفعت بيزنطة ثمنها الشيء الكثير من أمنها واستقرارها وقوتها ، ويرى بعض المؤرخين ان الهزيمة التي لحقت بأعداء الصور والايقونات كانت ذات اثر بالغ على العلاقة بين الدولة والكنيسة اذ انها كانت في نظرهم اخفاقا تاما لمحاولة الدولة اخضاع الكنيسة لسيطرتها وجعلها تبدو انها تابعة لها كغيرها من المؤسسات ، ونخلص من كل ماحدث أن ازمة الايقونات والنتيجة التي الت اليها كانت لصالح الكنيسة اذ انها ثبتت شخصيتها وابرزت نفسها كمؤسسة قوية ذات سيطرة وسلطان ، وسواء وافقنا على هذا الراي ام لم نوافق ان الشيء الأكيد

هو أن الكنيسة البيزنطية لم تستطع في اي وقت من الاوقات أن تحصل على حرية التصرف بعيدا عن ارادة الدولة وظلت علاقتها خلال تاريخها علاقة تعاون لايخلو من الخضوع لأن الكنيسة كانت دوما بحاجة للحماية التي يوفرها لها الدولة.

وبعد ان حلت مشكلة الايقونات واستقرت الأمور في الداخل بدا ثيوكتستوس ـ وهو أحد أعضاء مجلس الوصاية على العرش وكانت تيودورا تمنحه ثقتها وتفضله على اخوتها الاعضاء في المجلس نفسه ـ يقوي نفوذه ضمن المجلس ويبعد خصمه بارداس (اخا الامبراطورة ثيودورا) ولم تمض الا برهة وجيزة حتى اصبح المستشار الوحيد للامبراطورة . وكان ثيوكتيستوس هذا من المع رجال عصره وأوسعهم ثقافة ، فأهتم بأمر الاحياء الثقافي في الامبراطورية واعتنى بالتعليم عناية لم تشهد لها بيزنطة من قبل مثيلا ، وكان لخبرته الواسعة في الشؤون المالية (كان ثيوكتيستوس في الأساس من كبار الموظفين الماليين) الفضل في توفير احتياطي كبير من الذهب لبيزنطة ، ولابد من التنويه هنا الى أن اعادة الاعتبار للايقونات في هذه الفترة لم يكن له من النتائج مايشابه ماحدث زمن الامبراطورة ايرين ، وذلك لأنه ، على عكس ماكان عليه الحال آنذاك ، لم يكن في بيزنطة في هذه الفترة حزب او فئة تناصر الايقونات أو تتحمس لها كما مضى ، يضاف الى هذا ان ثيودورا وثيوكتيستوس ومعهم البطريرك ميثوديوس كانوا حذرين في الخطوات التي اتخذوها للقضاء على أعداء الايقونات ولم يستعملوا العنف معهم ، وعلى الرغم من كل الحذر والاعتدال اللذين استعملتهما الامبراطورة ومساعدوها في معاملة أعداء الايقونات فان بعض الغلاة ، ولاسيما الرهبان الستوديين ظلوا مصدر فتنة بالنسبة للدولة مما اضطر الكنيسة لطردهم من الجماعة المسيحية . وفي الرابع عشر من شهر حزيران من سنة ٨٤٧ م توفي البطريرك ميثوديوس فخلفه بطريرك جديد اسمه اغناطوس ، وهو ابن للامبراطور الراحل ميخائيل رانغاب ، وكان قد خصي بعد عزل

ابيه عن العرش ودخل في سلك الرهبنة ، وكان اغناطيوس هذا راهبا شديد التمسك برهبنته ، وقد أدى هذا الى وقوفه موقفا متخاذلا أمام الرهبان الستوديين وبالتالي الى اشتداد أمر معارضتهم للدولة وانتهى الأمر بان أصبح اغناطيوس طرفا في نزاع ديني جديد ، في حين أن مهمته كانت تقضي بانهاء كل الخلافات والخصومات الدينية .

وعقب انتهاء ازمة الايقونات التفتت بيزنطة الى متابعة حروبها مع العرب المسلمين فقد قاد ثيوكتيستوس حملة كبيرة ضد كريت في عام ٨٤٤ م ، ولكن لم يكتب لهذه الحملة اي انتصار ويبدو ان السبب في ذلك يعود الى حد بعيد لجهل ثيوكتيستوس كقائد عسكري ، وتبع انكساره في كريت انكسار اخر امام العرب عند نهر موروبوتاموس الذي يصب في البوسفور ، وحدوث هذه المعركة قرب هذا النهر دليل واضح على مدى توغل العرب ضمن الحدود البيزنطية زمن الخليفة المعتصم ، ولكن اضطراب الأحوال زمن الخليفة الواثق بالله (ابن المعتصم حكم بين سنتي ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) اضطر هذا الخليفة لأن يعقد صلحا مع البيزنطيين ، وأن يتبادل معهم الأسرى في موقع قرب نهر لاموس على الحدود بين الأراضي العربية والبيزنطية وذلك في سنة ٢٣٦ هـ ـ ٨٤٥ م وساعد اضطراب الاحوال الداخلية في بلاد الخلافة الاسلامية في هذه الفترة وانفصال عدد من الدويلات عن جسد الدولة الأم في بغداد على إتاحة الفرصة لبيزنطة للاهتمام بحل مشاكلها الأخرى التي كان أهمها مشكلة طائفة دينية عرفت بطائفة البوليصيين ، وكانت فيما مضى تحظى بعطف الأباطرة المعادين للايقونات لاتفاقها في الرأي معهم .

ومن ثم تمتعت بحماية الامبراطور نقفور الأول . وقد انتشرت اراء هذه الطائفة في اسيا الصغرى وكثر اتباعها لدرجة ان الأباطرة منذ ميخائيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣ م) وجدوا ضرورة لايقافهم عند حدهم لانهم اخذوا يشكلون خطرا على الدولة ، وقد اشترك في النقمة

عليهم والبطش بهم الأباطرة الأورثوذكس واعداء الايقونات على حد سواء وبنتيجة الضغط عليهم والتنكيل بهم هرب قسم كبير منهم من الأراضي البيزنطية والتجأوا الى امير ملطية العربي ، وانضموا تحت لواء جيشه وحاربوا في صفوف العرب ضد بيزنطة. وقد عانى البوليصيون اقسى أنواع الاضطهاد زمن الامبراطورة ثيودورا أم الامبراطور ميخائيل الثالث والوصية عليه ـ وتعرض الكثيرون منهم للقتل أو الافناء بطرق وحشية مختلفة .

هذا ولم تقف في هذه الأثناء العمليات العسكرية بين العرب وبيزنطة ، وكان ابرز عملية قامت بينهم بعد عملية تبادل الأسرى عند نهر لاموس التي اسلفنا ذكرها الحملة البحرية التي قام بها اسطول بيزنطي ضد الشاطئ المصري في عام ٨٥٣ م ففي هذا العام ظهر اسطول بيزنطي امام شاطئ دمياط فجأة والقى على هذه المدينة الحصار وكانت هذه هي المرة الأولى منذ القرن السابع التي يجرؤ فيها اسطول بيزنطي على التوغل في المياه العربية الى هذا الحد، وكان الخليفة الواثق قد توفي في هذه الاثناء بعد اصابته بمرض الاستسقاء وخلفه على العرش اخوه الخليفة المتوكل على الله . وكانت الحملة البحرية لبيزنطة على دمياط ردا على الصوائف الثلاث التي قادها والي الثغور على بن يحيى في السنوات ٨٥١ ـ ٨٥٣ فلما كانت سنة ٨٥٣ نزل الاسطول البيزنطي في دمياط وحاصرها واحرقها بعد ان هجرها سكانها وهربوا مخلفين ورائهم اموالهم وامتعتهم التي نهبها الجنود البيزنطيون.وقد نبهت هذه الحملة المفاجئة حكام مصر المسلمين الى ضرورة الاهتمام بانشاء اسطول قوي لحماية الشواطىء المصرية من هجمات مفاجئة كهذه ، ويذكر المقريزي ان امر البحر اصبح منذ هذه الحملة من اكبر الامور اهمية ، وقد بنيت السفن وجعل لرجال البحر عطاء الجند ، وكان هذا الاسطول الجديد النواة التي اعتمد عليها الفاطميون فيما بعد .

على ان فترة النشاط السياسي والفكري بالمعنى الواسع للكلمة لم

تبدأ في بيزنطة الا بعد انقلاب عام ٨٥٦ ،وهو الانقلاب الذي جاء بالامبراطور الشاب ميخائيل الثالث الى سدة الحكم ومعه خاله بارداس الذي اصبح المشرف الحقيقي على تسيير شؤون الدولة .

وبحكم ان كلا من ميخائيل وبارداس كانا من ضحايا حكم ثيودورا وثيوكتيستوس فقد اصبحا حليفين طبيعيين يجمع بينهما ضغط ثيودورا ومحاولتها الاستئثار بالسلطة مع شريكها ثيوتيستوس. وقد بلغ تسلط ثيودورا على ابنها حدا جعلها تتدخل في ادق خصوصياته حتى انها فرضت عليه البعد عن خليلته والزواج من سيدة اختارتها هي له كانت لا تربطه بها اية رابطة من ود او تفاهم ، وفي غفلة من الامبراطورة استطاع بارداس باتفاق سري بينه وبين الامبراطور الشاب ان يتسلل الى البلاط وان يقوم بتدبير مؤامرة انتهت بمقتل ثيوكتيستوس بحضور ميخائيل الثالث ، وتبع هذه المؤامرة اعلان مجلس الوصاية ميخائيل حاكما مستقلا لايحتاج لأية وصاية،واجبرت ثيودورا بنتيجة كل هذا على التخلي عن سلطانها واشرافها على شؤون الدولة وارسلت بناتها الى دير للراهبات ، وهكذا لم تمض سنتان على هجوم ثيودورا الفتاك على اخيها بارداس حتى كانت هي تقاسي من المصير نفسه .

ولم يكن ميخائيل مثلا اخلاقيا اعلى في كل تصرفاته ، بيد انه لم يكن ايضا احمقا لا يصلح للادارة او تنقصه الشجاعة بل كان انسانا عاديا فيه من الصفات ما يحمد وما يذم ، دافع عن الامبراطورية بحماس واخلاص وقاد الجيوش بنفسه ، زيادة في الحرص على النصر ومع هذا كانت تعوزه الارادة القوية والشخصية الفذة التي تستطيع ان تبت بالامور او تقطع بها دون معونة الاخرين ، لذلك كثيرا ما كانت تتغير مواقفه من القضية الواحدة حسب تغير مستشاريه وتبدل الاتجاهات في بلاطه ، ولذا لم تكن المنجزات التي تمت اثناء حكمه من ابداعه او وحيه ، مما جعل الناس يقولون عنه انه لم يكن عظيما بذاته ولكنه عاش في فترة تمت فيها منجزات عظيمة الفضل فيها لبارداس وفوتيوس .

اصبح بارداس زمن ميخائيل الثالث الحاكم الحقيقي لبيزنطة ، كما كان حال ثيوكتيستوس زمن ثيودورا ، وحتى تعطى هذه السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها بارداس صفة رسمية اضفى عليه الامبراطور القاب شرف عديدة كما سماه بالنهاية قيصرا ، والحق ان بارداس كان رجلا من طراز فريد تمتع بذكاء ودهاء عظيمين فاق بهما جميع الذين تقدموه . ولم يكن عهده عهد منجزات هامة في حقول السياسة فحسب ، بل كان كذلك في حقل الثقافة ايضا ،ولعل خير شاهد على هذه المكانة الرفيعة التي وصلت اليها الجامعة التي نظمها في مانيورا والتي اصبحت من اهم مراكز العلم والتربية في بيزنطة بما افتتح فيها من فروع واختصاصات تتناول العلوم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العصر،ولم يكتف بارداس بتنظيم هذه الجامعة ، بل استدعى للعمل فيها جيشا من علماء العصر على راسهم العالم الرياضي ليون الذي كان موسوعي الفكر والثقافة بالرغم من كونه ابن اخ الايقوني الشهير يوحنا غراما تيكوس ، كما كان من بين اعضاء هيئة التدريس في هذه الجامعة فوتيوس الذي كان يعد اشهر اساتذة القرن التاسع .

وكما حدث تغيير في الجهاز الحاكم عقب تسلم ميخائيل الثالث سلطاته الدستورية فقد حدث تغيير ايضا في الجهاز الذي كان يدير الكنيسة انذاك وذلك لانه لم يكن من الممكن ان يقوم اي نوع من انواع التعاون بين بارداس صاحب الكلمة العليا الان وبين اغناطيوس بطريرك القسطنطينية الذي كان من اتباع الحكام الماضين الذين خلعهم بارداس واستولى على السلطة منهم .

وهكذا اجبر اغناطيوس على الاستقالة من منصب البطريركية. وفي كانون الاول لعام ٨٥٨ م.رفع العالم فوتيوس الى السدة البطريركية وقد كان هذا التبديل بالنسبة للكنيسة بداية عهد من الازمات والمشاكل الدينية لم تعرف لها الكنيسة مثيلا في تاريخها المتقدم .لقد كان فوتيوس ابرز مفكر واقدر دبلوماسي واشهر سياسي يتولى منصب البطريركية في القسطنطينية .

وكما قام المتزمتون وحملوا الوية المعارضة ضد هؤلاء البطاركة كذلك قامت ضد فوتيوس عناصر الرهبان الستوديين وعلى راسهم الاب نيقولا وادعو ان تعيينه لم يكن شرعيا وان البطريركية الشرعية ما تزال من حق اغناطيوس ، وهكذا نشأ في بيزنطة حزبان دينيان حزب يدين بالولاء لفوتيوس ، وحزب يعتقد ان البطريرك الشرعي هو اغناطيوس .

والى جانب هذا الصراع الداخلي كان على البطريرك الجديد ان يواجه صراعا اكثر خطورة مع روما ، ففي اعقاب ازمة الايقونات وبشكل ادق نتيجة قيام امبراطورية مسيحية غربية ، دخلت العلاقات بين الكنيستين اللاتينية والاغريقية مرحلة جديدة مشحونة بالاضطرابات فقد استمر المتزمتون من رجال الدين يتطلعون نحو روما ويعتبرونها المركز الديني الاول برغم ما جد في مجال الكنيسة البيزنطية من اشياء جعلتها تحتل مركزا رفيعا في عالم الاهمية الدينية ، ومع ان العرف جرى منذ زمن الامبراطور نقفور الذي جددت في زمنه القطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية اثر التقارب بين روما والمملكة الفرنجية بالا يرسل بطريرك القسطنطينية اعلاما بتعيينه لهذا المنصب الى بابا روما ، فان فوتيوس رغبة منه بتجنب المشاكل قام حين تسلم كرسي البطريركية بارسال هذا الاعلام الى البابا املا منه ان يساعده اعتراف البابا به على مواجهة خصومه داخل بيزنطة ، وصادف انه كان يجلس على العرش البابوي في هذه الاثناء البابا الطموح نيقولا الاول الذي كان قد صمم منذ اللحظة الاولى لتسلمه هذا المنصب على تعميم سيادة كنيسة روما على جميع كنائس العالم المسيحي ، لذلك استفاد من الصراع فتخلى عن صفة الحياد وانضم الى انصار اغناطيوس في عدم الاعتراف بشرعية فوتيوس ، وتجدر الملاحظة هنا انه صحيح ان رسم فوتيوس بطريركيا لم يتم حسب القواعد الدينية السليمة ولكن مثل هذا كان قد حدث بالنسبة للبطريرك تارازيوس الذي اعترفت به روما اعترافا كاملا ومحضته التاييد والثقة ، ولعل السبب في موقف البابا نيقولا الاول الان هو رغبته في ان يثبت دعائم السيادة البابوية واظهار

الذي يشغل هذا المنصب بمظهر السيد الاعلى الذي لاتنازع كلمته في القضايا الدينية في الشرق وفي الغرب ولهذا الغرض عقد مجمعا دينيا في اللاتيران واعلن خلع فوتيوس من البطريركية وذلك سنة ٨٦٣ م وكان رد فوتيوس عنيفا وقاسيا واثبت بتحديه لقرارات البابا والمجمع الذي عقده عدم اهتمام بطريركية القسطنطينية بقرارات روما ،واعلن ان شؤون الكنيسة البيزنطية من اختصاص بطريرك القسطنطينية فقط وليس لأحد اي سلطان عليها .

وتابع ميخائيل الثالث الحروب ضد العرب بعزيمة وقوة وساعده في هذه الحروب عدد من القادة الاقوياء الذين كانوا في خدمة الامبراطورية في زمنه .

ولكن النجاح لم يكن حليف بيزنطة في هذه الحروب ولاسيما في جبهة صقلية حيث اضاعت الامبراطورية مراكز دفاعها واحدا تلو الاخر . ولم تمض مدة طويلة حتى خضعت جزيرة صقلية بكاملها للعرب واخذ العرب يشقون طريقهم في جنوب ايطاليا ولم يكد حكم ميخائيل الثالث يشارف على الانتهاء حتى كانت كل صقلية بيد العرب اما في جبهة اسيا الصغرى فقد كان موقف بيزنطة موقف الهجوم لا الدفاع .

وقامت جيوش الامبراطورية بعدة عمليات عسكرية حصلت فيها على بعض الانتصارات واخذت عددا من الاسرى ففي سنة ٨٥٦ م اغار البيزنطيون على عين زربه في الثغور الشامية واسروا من كان بها من الزط مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم ، وفيها ايضا كان الفداء بين المسلمين والروم ، وقد قامت حروب اخرى مثيرة بين العرب وبيزنطة زمن ميخائيل الثالث في منطقة اسيا الصغرى كان الفوز في بعضها حليف بيزنطة وحليف العرب في بعضها الاخر ، كما قامت بين الطرفين معارك ولاسيما في سميساط على ان هذه الحروب لم تكن حاسمة بالنسبة لاي من الطرفين وكان يتخللها فترات سلم ومهادنة وعمليات تبادل اسرى ، وظل الحال كذلك حتى سنة ٨٦٣ م حين غزا عمر بن عبد الله الاقطع امير ملطية

منطقة ارمينيا واحتل ميناء امـاسية(اميسـوس) على شـواطىء البحر الاسود وقابله من الجانب البيزنطي القائد الشهير بتـروناس وجرت بين الطرفين معركة حامية انتهت بفوز بيزنطة ومقتـل عمـر نفسه والقضاء على الجيش الاسلامي ، وعد المؤرخـون البيزنطيون فور بتروناس هذا على عمر ثأرا لموقعة عمورية التـي جـرت قبـل خمس وعشرين سنة.ومنذ هـذا الحين انتقلت بيزنطـة مـن جـانب الدفاع الى جانب الهجوم في أسـية الصـغرى . ولم يقتصر سـجل العلاقات بين العرب والروم في هذه الفترة على الحرب ، بـل قـامت بين الطرفين عمليات تبادل للسفارات والوفود ، وينقل لنا الطبـري حديثا على لسان نصرين الازهر رسـول المتـوكل الى الامبـراطور ميخائيل الثالث سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ـ ٨٦١ م يقـول فيه :«لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت بيني وبين خال الملك بطروكاس (لعله يقصد برداس) المناظرة وهو القيم بشأن الملك ، وابـو ان يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت : انصرف فانصرفت ، فرددت مـن الطـريق ومعي الهدايا نحو الف نافجة مسك وثياب وحـرير وزعفـران كثير وطرائف .... وحملت الهدايا التي معي ، فدخلت عليه فاذا هو على سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت عليه ثم جلسـت على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ووضعت الهـدايا بين يديه ، وبين يديه ثلاثة تراجمة فاقبلوا يترجمون ما اقـول ، فقبـل الهدايا ولم يأمر لاحد منهـا بشيء وقـربني واكرمني وهيأ لي منزلا بقربه » ... وتباحث نصر فيما يهمه من قضـايا مـع بـرداس خـال ميخائيل واخـذ منه الوعود فيمـا جـاء مـن اجله ... الى ان يقول :« فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ،فقلت : ايها الملك قـد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه : نعم ولم اسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منهـا انمـا يقـول الترجمان وهو يسمع فيقول بـرأسه : نعـم او لا ،» وليس يتـكلم وخاله المدبر امره » وحاول بعضهم ان يتخذ مـن هـذه الرواية دليلا على شخصية ميخائيل الضعيفة وخضوعه المطلق لسـلطان خـاله ، ناسين مكانة الامبراطور وسمو مكانته وتقديسه .

ولابد هنا من التنويه بان النصر الذي احرزه البيزنطيون سنة ٨٦٣ على العرب كان له اثر في تقوية موقفهم وتوجيه الاحداث وجهة جديدة في العالم السلافي الذي كان يحيط بهم وينتشر على اراضي روسيا ومورافيا وبلاد السلاف الجنوبيين ، ففي سنة ٨٦٠ هاجم الروس لاول مرة القسطنطينية واحاطوا بالمدينة وخربوا المناطق المحيطة بها ، وكان الامبراطور انذاك قد خرج في حملة ضد العرب ووصلته الاخبار فعاد مسرعا ليتولى بنفسه امر الدفاع عن عاصمته ، وليتساعد مع البطريرك في رفع معنويات سكان المدينة الذين ذعروا لهذا الحصار المفاجيء ويبدو ان الذعر الذي ساد بين الناس كان قويا لدرجة انهم عزوا نجاتهم من هذه المصيبة للعذراء التي انقذتهم من دمار محقق ، وبهذا الحادث يربط المؤرخون تاريخ العلاقات بين بيزنطة وبين المملكة الروسية الناشئة كما ان العمل للتبشير بالمسيحية بين الروس يعود لهذه الفترة ، وقد اعتقد بطريرك القسطنطينية ان التبشير سياسة هامة لان شعبا يدين بالنصرانية على المذهب البيزنطي سيكون حليفا لبيزنطة لاعدوا لها .

ونتج عن الهجوم الروسي على القسطنطينية ان اضطرت بيزنطة لتجديد تحالفها مع الخزر وارسلت سفارة اليهم لتقوم بالاتصالات اللازمة ، ومن الجدير بالذكر ان العمل السياسي في هذه المنطقة اقترن بالعمل التبشيري وكانت السفارة برئاسة رجال الدين الاذكياء الذين يستطيعون ان يرفعوا من شأن النصرانية في وجه التيار الاسلامي الكاسح الذي كان يمتد على المنطقة ، واتسع عمل هذه السفارة السياسية الدينية بعد ذلك وامتد الى مورافيا التي كان يحكمهاالامير راستيسلاف والتي كانت تقصدها بعثات تبشيرية فرنجية لايرضى عنها الامير ، وهكذا اتسع نطاق العمل التبشيري البيزنطي وانضم المورافيون والبلغار من بعدهم الى التبعية الدينية المسيحية ، على ان ما جمعه الدين فرقته السياسية اذ اصبح المورافيون حلفاء لبيزنطة في حين اصبح البلغار من انصار الفرنجة ، وقد ازعج الحلف البلغاري الفرنجي بيزنطة ، فارسلت

جيوشها واساطيلها الى الحدود والمياه البلغارية المجاورة لها واستطاعت الامبراطورية بهذا الشكل ان تجبر الملك بوريس على اعلان ولائه للامبراطورية دينيا وسياسيا معا ، وبهذا ابعدت نفوذ الامبراطورية الفرنجية السياسي عن حدودها ، كما ابعدت نفوذ روما الديني عن رعاياها .

وهنا نستطيع القول ان النزاع بين روما والقسطنطينية قد وصل الى ذروته وذلك على يد فوتيوس الذي لم يكن بطلا من ابطال الاستقلال الديني للكنيسة البيزنطية فحسب بل كان ايضا دماغا سياسيا جبارا محضته الدولة ممثلة بشخص الامبراطور وكبار رجالات الحكم خالص الثقة والدعم وسارت وراءه في كل راي فيه خير الامبراطورية ، وفي سبيل اظهار هذا الدعم ارسل الامبراطور خطابا الى بابا روما يشرح فيه وجهة النظر الامبراطورية في قضية استقلال الكنيسة البيزنطية وسيادتها على غيرها من الكنائس القائمة وطلب الكتاب من البابا ان يسحب قراره ضد فوتيوس ، وقد صيغ الكتاب على شكل انذار شديد اللهجة فيه رفض لكل سيادة لروما على القسطنطينية .

ولم يكتف فوتيوس بهذا بل سار خطوة اوسع واخذ يكيل هو الاتهامات للكنيسة البابوية ويظهرها بمظهر المخطيء الذي ينقصه الانضباط ووصل به الامر الى حد اتهام روما بالهرقطة الدينية . وفعلا عقد في عام ٨٦٧ م مجمعا دينيا في القسطنطينية ترأسه الامبراطور ، وقرر هذا المجمع طرد البابا نيقولا من الجماعة المسيحية وراى في تدخل كنيسة روما في شؤون الكنيسة البيزنطية عملا غير مشروع .

وتشاء الصدف في هذه الفترة الحرجة من تاريخ بيزنطة ان تحدث ثورة في القصر سيكون من نتائجها ان يتغير خط سير الاحداث بالنسبة للامبراطورية والامبراطور على حد سواء ، فقد اتخذ ميخائيل الثالث صديقا له وقربه منه وادخله القصر ، وكان هذا الصديق هو باسيل الذي سيتسلل الى حياة القصر بشكل سريع مكنه

في النهاية من قتل بارداس وذبح الامبراطور نفسه وهو سكران في غرفة نومه وهكذا نصل الى فترة جديدة من فترات التاريخ البيزنطي وهي فترة حكم الاسرة المكدونية التي سنتناول بعض تاريخها فيما يلي :

فترة حكم الاسرة المكدونية (٧٦٧ ـ ١٠٨١)

يمكن تقسيم فترة حكم الاسرة المكدونية الى مرحلتين غير متكافئتين من حيث الاهمية والمدة : اذ تمتد الفترة الاولى من سنة ٨٦٧ حتى سنة ١٠٢٥ م وهي السنة التي توفي فيها الامبراطور باسيل الثاني في حين ان الفترة الثانية لاتمتد اكثر من احدى وثلاثين سنة (١٠٢٥ ـ ١٠٥٦ م)وتنتهي بموت الامبراطورة ثيودورا ، وهي اخر افراد هذه الاسرة الذين تولوا سدة الامبراطورية .

وتعد المرحلة الاولى من ازهى عصور الامبراطورية واكثرها اهمية من حيث الوجود السياسي فالصراع في الشرق والشمال ، مع العرب والبلغار والروس توج بنصر كبير لبيزنطة وذلك شروعا من النصف الثاني للقرن العاشر ثم مطلع القرن الحادي عشر الميلاديين ، وكان الصراع مع هذه الاقوام قد لاقى بعض المصاعب اول الامر ولاسيما في الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر ولكن ما كادت فترة حكم نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تطل على العالم البيزنطي حتى ابتسم الحظ مجددا للامبراطورية فاخذت تحقق الانتصارات التي بلغت ذروتها في عهد الامبراطور باسيل الثاني ، ففي اثناء حكم هذا الاخير سحقت الحركات الانفصالية في آسيا الصغرى وقوي النفوذ البيزنطي في سورية والحق جزء من ارمينية بالامبراطورية مباشرة ، كما اصبح جزء منها ملحقا بالتبعية اما بلغاريا فقد غدت مقاطعة بيزنطية وأدى دخول الروس في النصرانية الى قيام علاقات دينية وثقافية واقتصادية وسياسية وثيقة بينهم وبين الامبراطورية .

وشكلت هذه المرحلة من حياة الامبراطورية ذروة المجد والعظمة التي وصلتها بيزنطة في اية مرحلة من مراحل حياتها السياسية ولم يقتصر الامر على ميدان السياسة فحسب بل حققت الامبراطورية امجادا كبيرة في ميادين اخرى من بينها ميدان التشريع الذي تحقق فيه نشر المدونة الباسيليكية وعدد من الاعمال الثانويةالصغرى ولا سيما ما يتعلق بقضية ملكية الارض واتساع الاقطاع وغير ذلك من القضايا الزراعية ، هذا فضلا عن الانجازات الرائعة في الحقل الثقافي وما تم على ايدي مثقفين كبار كان من بينهم البطريرك فوتيوس وقسطنطين بورفير وغيرهما من المشاهير .

ولكن ما كادت شخصية باسيل الثاني القوية تغيب من مسرح الاحداث وذلك سنة ١٠٢٥ م حتى دخلت الامبراطورية في فترة من الفوضى حيث كثرت فيها المشاحنات والمنازعات والثورات من داخل القصر وخارجه ، وقد ادت هذه المشاكل الى مرور فترة من الازمات الحادة هي الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٦ ـ ١٠٨١ ففي هذه السنة ١٠٨١ م صعد العرش البيزنطي امبراطور من اسرة كومنين فوضع بذلك حدا لعصر من الفوضى طال وثقل على الناس واخذت الامبراطورية تستعيد انفاسها في الداخل ، كما انتعشت العلوم والفنون وعادت الحياة الثقافية الى الازدهار ، بعد ركود وتوقف طويلين ،وفي مطلع عصر ال كومنين وصلت جحافل الفرنجة الى الاراضي البيزنطية ومن هناك زحفت نحو بلاد الشام حيث تفجرت وقائع صراع استمر قرابة قرنين عرف باسم الحروب الصليبية .

وهناك اكثر من راي بشأن اصل مؤسس السلالة المقدونية بعضها ذهب الى القول انه كان من اصل مقدوني واصر بعضها الاخر على القول انه كان من اصل ارمني وتذهب المصادر العربية الى القول انه كان من اصل سلافي .

وتعد حياة باسيل قبل استيلائه علَى العرش الامبراطوري حياة غير عادية فقد كان شابا مغمورا قدم في صباه الى القسطنطينية ليبحث عن فرصة في الحياة فجلب انتباه رجال القصر بطوله الفارع

وقوته المتناهية ، واستطاعته لمنازلة وغلبة اشد الحيوانات ضراوة ، وقد وصلت اخبار هذا الشاب الى مسامع الامبراطور ميخائيل الثالث فاعجب به وضمه الى حاشيته ولم تمض مدة حتى استطاع التابع الشاب ان يوقع سيده الامبراطور تحت سيطرته التامة لدرجة انه عينه امبراطورا مساعدا وتوجه في كنيسة ايا صوفيا ولكنه لم يكن وفيا لليد التي رفعته ، وعوضا عن ان يقبلها بترها الى غير ما رجعة اذ يحدثنا المؤرخون انه حينما شعر بان الامبراطور ميخائيل يشك بنواياه اتجاهه امر رجاله بتدبير مؤامرة لقتله ، وتسلم العرش عوضا عنه وحكم بين ٨٦٧ ـ ٨٨٧ وقد خلفه في حكم بيزنطة ابناه : ليون السادس الذي لقب بالفيلسوف او الحكيم وحكم بين سنتي ٨٨٧ ـ ٩١٢ والكسندر الذي حكم بين سنتي ٨٨٧ ـ ٩١٣ اما ابن ليون السادس قسطنطين السابع بورفيروجينيوس(٩١٣ ـ ٩٥٩) فقد كان غير مهتم بامور الدولة ومنصرفا الى التأليف والكتابة والدرس والتعايش مع علماء عصره وادبائه ، وقد سيطر على شؤون الدولة في زمنه حموه رومانوس ليكابينوس الذي كان في الاساس من قادة البحرية العظام المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة ، وظل ليكابينوس يصرف شؤون البلاد بوجود الامبراطور قسطنطين السابع مدة خمس وعشرين سنة(٩١٩ ـ ٩٤٤) اجبره بعدها اولاده (اولاد رومانوس ليكابينوس) على التخلي عن السلطة والانسحاب من الحياة العامة والانقطاع في احد الاديرة ، وتسلموا السلطة في البلاد عوضا من ابيهم المعزول ولم تستمر سلطة اولاد ليكابينوس الا بضعة شهور استطاع بعدها الامبراطور قسطنطين السابع ان يستعيد سيطرته الفعلية وان يبعدهم وان يحكم منفردا من سنة ٩٤٥ حتى ٩٥٩ .

اما رومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع فقد حكم مدة اربع سنوات فقط (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) وتوفي تاركا زوجته ثيوفانو مع ولديهما الصغيرين باسيل وقسطنطين .

وقد تزوجت ثيوفانو بعد وفاة زوجها من القائد الشهير نقفور

فوكاس الذي عين امبراطورا باسم نقفور الثاني فوكاس وحكم بين سنتي ٩٦٣ ـ ٩٦٩ م ، وقد انتهت حياة فوكاس بالقتل وانتقل العرش الى يوحنا تزيكمس الذي اضفى الشرعية على اغتصابه السلطة بزواجه من ثيودورا اخت رومانوس الثاني وابنه قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس . وقد استمر حكم تزيمكس من ٩٦٩ حتى سنة ٩٧٦ م حين توفي .

وانتقل العرش بعد هذا الى ابني رومانوس الثاني : باسيل الثاني المقلب بذابح البلغار(٩٧٦ ـ ١٠٢٥) وقسطنطين الثاني ٩٧٦ ـ ١٠٢٨ م) وخلال هذه الفترة من حياة الامبراطورية التي كان الحكم فيها مزدوجا كان باسيل الثاني يتمتع بالنفوذ الاوسع في شؤون الادارة الامبراطورية وقد استطاع ان يصل ببيزنطة الى مرتبة رفيعة من المجد والقوة ، وقد ابتدأت بوفاته مرحلة الضعف والانحطاط بالنسبة للاسرة المقدونية التي لن يطول الزمن بها والتي ستواجه نهايتها سنة ١٠٨١ م ولم يمهل الموت قسطنطين الثامن اخو باسيل الثاني طويلا ، ففي سنة ١٠٢٨ م توفي هذا الامبراطور ايضا ودخلت مجددا قضية العرش البيزنطي في محنة جديدة لم تحل الا حين تزوج رومانوس ارغيروس عضو مجلس الشيوخ البيزنطي « زويه » ابنه قسطنطين الثامن واعتلي سدة العرش من ١٠٢٨ حتي ١٠٣٤ م .

وبعد ان توفي ارغيروس تزوجت زوية للمرة الثانية عشيقها ميخائيل البافلاغوني على الرغم من انها كانت في السادسة والخمسين من عمرها ، وقد توج ميخائيل البافلاغوني امبراطورا باسم ميخائيل الرابع واستمر حكمه من سنة ١٠٣٤ ـ ١٠٤١ وفي خلال حكمه وحكم ابن اخيه ميخائيل الخامس الذي لم يدم طويلا ١٠٤١ ـ ١٠٤٢ حدثت اضطرابات كثيرة في الداخل والخارج انتهت بخلع ميخائيل الخامس وسمل عينيه ودخل الحكم في بيزنطة بعد هذا في مرحلة من الفوضى تقلب على الحكم فيها عدة اشخاص : فقد ال العرش اول الامر ولمدة شهرين الى زوية الارملة للمرة الثانية

واختها الصغرى ثيودورا وفي السنة نفسها ١٠٤٤ تزوجت زوية للمرة الثالثة واعلن زوجها الثالث امبراطورا باسم قسطنطين التاسع مونوماكوس وحكم بين سنتي ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥ م ولم يتح لزوية ان تتزوج زواجا رابعا لانها توفيت قبل زوجها الثالث اما اختها ثيود ورا فقد عاشت بعد قسطنطين مونوما كوس واصبحت بعد وفاته الحاكمة الوحيدة للامبراطورية بين سنتي ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦ م.ويعد حكم زوية واختها ثيودورا المناسبة الثانية والاخيرة التي مرت على بيزنطة وكان الحكم فيها لا مراة،فقد كانت المناسبة الاولى التي حكمت فيها امراة زمن الامبراطورة ايرين بطلة الحركة المؤيدة للصور والتي توسدت العرش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع كما راينا من قبل.وقد حكمت كل من زوية وثيودورا باسم : امبراطورة الرومان .

وقبل أن تتوفى بقليل ، اذعنت ثيودورا لضغط جماعة القصر وانتخبت احد الأشراف المسمى ميخائيل ستراتيكوتيكوس،كخلف لها . وقد اعتلى ستراتيكو تيكوس،هذا العرش بعد ثيودورا التي كانت أخر من حكم من الأسرة المكدونية هذه الأسرة التي تربع افراد منها على العرش البيزنطي طيلة ١٨٩ سنة متوالية .

علاقات بيزنطة أيام حكم الأسرة المكدونية

١ـ العلاقات البيزنطية العربية :

كانت اهم مسائل السياسة الخارجية زمن الامبراطور باسيل الأول ، مؤسس،حكم الأسرة المقدونية مسالة الصراع مع العرب المسلمين ، وقد كانت الظروف مواتية زمن هذا الامبراطور لتحقيق نصر في هذا الميدان لأن علاقات الامبراطور كانت حسنة مع : أرمينيا في الشرق ، ومع الروس،والبلغار في الشمال ، ومع البندقية والامبراطورية الفرنجية في الغرب ، واذا أضفنا الى هذا الجو من الصداقة.والود مع هذه الأقوام ، ظروف الخلافة العباسية

الداخلية وماكانت تعيشه من أزمات ابان تسلط ضباط القصر الاتراك على الخلفاء وانفصال مصر عن جسد الخلافة زمن الطولونيين ، واضطراب الأوضاع في الغرب الاسلامي ،لوجدنا ان باسيل كان يتمتع بفرصة ذهبية لتحقيق نصر على المشرق والمغرب ، ولكن على الرغم من كل هذه الظروف المواتية ، وبرغم ان الحرب بين الطرفين العربي والبيزنطي لم تتوقف لم تستطع الامبراطورية تحقيق نصر في هذه الجبهة .

ومع هذا قاد هذا الامبراطور حملة ناجحة ضد اتباع المذهب البوليصي في الجزء الشرقي من اسيا الصغرى حوالي سنة ٨٧٠ م واستطاع ان يتغلب عليهم ، ولم يكن من نتائج هذا النصر توسيع رقعة الامبراطورية فحسب ، بل وضع باسيل وجها لوجه مع عرب المشرق ، وفتح باب الصراع مع العرب بشكل مباشر ، وغدت المعارك بين الطرفين سنوية ، ولكن دونما نتيجة حاسمة ، فقد كان النصر تارة الى جانب العرب وتارة الى جانب الروم .

أما حروبه مع عرب المغرب ـ كما راينا من قبل ـ فقد كانت اكثر جدية لأن المغاربة في ذلك الوقت كانوا يحكمون الجزء الأكبر من صقلية ويحتلون بعض المراكز الهامة في جنوب ايطاليا ، وقد أدت الأوضاع السيئة في ايطاليا الى تدخل الامبراطور الفرنجي لويس الثاني واحتلاله مدينة باري الهامة ، وقد عقد باسيل الأول اتفاقا مع لويس الثاني ينص على أن يتعاون الاثنان على طرد عرب المغرب من ايطاليا وصقلية ، ولكن لم يكتب لهذا الاتفاق النجاح ومالبث ان انحل الحلف البيزنطي الفرنجي ، وحين توفي لويس الثاني قام سكان باري وسلموا مدينتهم الى ممثلين للامبراطور البيزنطي .

وفي الوقت نفسه استطاع العرب ان يفتحوا جزيرة مالطة ذات الموقع الستراتيجي الهام ، كما اكملوا فتح جزيرة صقلية ، كما بينا من قبل ، ولم يكتف باسيل الأول بالتعاون مع الامبراطور الفرنجي ضد العرب بل حاول أن يقيم تحالفا مع الملك الارمني باغراتيد موجها ضد عرب المشرق ، ولكن لم يتح لهذا التحالف ان يظهر لحيز

الوجود لأن باسيل توفي في هذه الفترة ، ويمكن القول انه على الرغم من الانكاسات التي الحقت بالبيزنطيين في صقلية فان الامبراطور باسيل الأول استطاع ان يوسع حدود امبراطوريته بعض الشيء في آسية الصغرى .

لقد أقام باسيل علاقات ود مع جيرانه المختلفين ماعدا العرب ، ولكن لم يتح لهذه العلاقات ان تستمر زمن خليفته ليون السادس الملقب بالحكيم ، فقد قامت زمن حكم هذا الامبراطور (٨٨٦ ـ ٩١٢) حروب بين بيزنطة والبلغار انتهت باخفاق بيزنطة ، واثناء هذه الحروب ظهر المجر (الهنغاريون) لأول مرة في التاريخ البيزنطي ، وقبيل انتهاء حكم ليون الحكيم ظهر الروس قرب القسطنطينية ، أما ارمينيا حليفة بيزنطة ، فقد كانت تتلقى الضربات المتوالية من العرب دون ان تحصل على المعونة المتوقعة من بيزنطة ، يضاف الى هذا أن قضية الزواج الرابع للامبراطور وما سببته من مشاكل داخلية ، زادت في ضعف الامبراطورية واضعفت بالتالي المقاومة البيزنطية للهجمات العربية المتكررة ، وايا كان ، فقد كانت الحملات ضد العرب بلا جدوى زمن ليون السادس ، ولم يحقق أي من الطرفين نصرا حاسما ، ففي الغرب استطاع المسلمون ان يكملوا فتحهم لمنطقة مضيق مسينا ، وفي سنة ٩٠٢ م سقطت آخر معاقل البيزنطيين في صقلية، في يدهم ، واصبحت صقلية بكاملها تحت الحكم العربي وقد ادى هذا الى جعل ليون السادس يسقط من حسابه اي امل في استرداد هذه الجزيرة .

هذا وقد تميزت بداية القرن العاشر بقيام الأسطول الاسلامي بعمليات حربية ناشطة ، ومنذ نهاية القرن التاسع كانت السفن العربية تقوم بهجمات موفقة على شواطئ البيلوبونيز وجزر بحر ايجة ، وقد ازدادت حدة هذه العمليات البحرية حين توحدت الاساطيل العربية في سورية وكريت وأخذت تقوم بهجمات مشتركة ، وقد كان الهجوم على سالونيك من قبل سفن مسلمة

يقودها ليون الطرابلسي سنة ٩٠٤ م اشهر ماحقق العرب من نصر بحري خلال هذه الفترة ، فقد سقطت هذه المدينة بعد حصار طويل وشاق ، ولكن القوات المهاجمة لم تبق فيها بعد استسلامها طويلا اذ انها عادت الى قواعدها في سورية بعد ان اخذت غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى ، وقد تنبهت بيزنطة بعد هذه الهزيمة والخسائر الى ضرورة تحصين هذه المدينة فأخذت تشيد الحصون والقلاع حولها لحمايتها وتجنيبها كارثة حلت بها .

وقد شعر البيزنطيون اثر الهزيمة التي لحقت بهم في صقلية ان الواجب يدعوهم الى الاهتمام باسطولهم ، فأخذوا ببناء سفن جديدة وضم جنود جدد الى سلاحهم البحري مما ساعدهم على كسب النصر في الموقعة البحرية التي جرت بينهم وبين العرب في بحر ايجة سنة ٩٠٦م على أن هذا النصر لم يكن سوى مناسبة وحيدة في سلسلة من الانكسارات ، اذا أن الأسطول البيزنطي مابرح أن لاقى هزيمة نكراءسنة ٩١١ على يد اسطول اسلامي مشترك مؤلف من سفن خرجت من كريت وأخرى من سورية وتلاقت مع الأسطول البيزنطي في معركة بحرية كبيرة .

وهكذا يمكننا ان نقول إن الصراع مع العرب برا وبحرا كان مخفقا زمن ليون السادس ، فقد خرجت صقلية في الغرب نهائيا من يد البيزنطيين ، وفي جنوب ايطاليا كانت الخسائر تتوالى ، كما كان العرب يحققون انتصارات متوالية في جهة الحدود الشرقية ،هذا فضلا عما ذكرناه من خسائر بيزنطة في البحر .

وحين انتقل العرش الى الامبراطور قسطنطين السابع بورفير وجينيتوس (٩١٣ ـ ٩١٩) ثم رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ ـ ٩٤٤) الذي حكم لفترة طويلة لم تستطع بيزنطة ان تقوم بعمل عسكري فعال ضد العرب لأن جيوشها كانت مشغولة في الحروب مع البلغار ، ولم يستطيع العرب المسلمون بالمقابل ان يستغلوا فرصة انشغال الجيوش البيزنطية في الجبهة البلغارية ليقوموا بعمل عسكري يحقق لهم نصرا على بيزنطة لأن الدولة

العباسية كانت في هذه الفترة من تاريخها تمر بفترة ضعف شديد وتنفصل عنها اقاليم تقوم فيها دويلات مستقلة . وكل ما استطاع البيزنطيون تحقيقه في أول حكم قسطنطين السابع هو التغلب على اسطول عربي كان يقوده ليون الطرابلسي في معركة بحرية جرت بين الطرفين قرب ليمنوس سنة ٩١٧ م .

وبدأت في هذه الفترة من تاريخ الصراع بين بيزنطة والعرب اسماء قواد جدد بالظهور والشهرة في كلا الجانبين ، ففي الجانب البيزنطي لمع اسم يوحنا كوركواس كقائد عسكري وكان أهل عصره يقارنونه بتراجان او بليزاريوس أو غيرهما من عظماء القواد ويقولون ان وجوده : أحل روحا جديدة من الثقة والمقدرة في الحدود الشرقية ، أما في الجانب العربي فقد طار صيت سيف الدولة الحمداني امير حلب حتى طرق الآفاق ، واصبح اسمه على كل شفة ولسان كقائد وامير وراع للعلم والأدب والفكر ، وكان بلاطه في حلب منارة قصدها مشاهير عصره في كل الميادين ، وفي حوالي منتصف القرن العاشر استطاع القائد كوركواس ان يحقق عدة انتصارات في الأجزاء الخاضعة للحكم العربي من ارمينيا وان يحتل بعض المدن في اعالي بلاد ما بين النهرين وقد احتل كوركواس سنة ٨٣٣ ملطية ، كما احتل سنة ٩٢٤ مدينة الرها واخذ منها بعض الآثار المقدسة (منها صورة للسيد المسيح) ونقلها الى العاصمة باحتفال مهيب ، وكان هذا اكبر نصر له ، مما دعا الناس الى تسميته بطل الساعة ولكن الامبراطور الذي خاف من تزايد شعبية كوركواس وما قد يراوده من أحلام أمر بعزله وأبعده عن قيادة الجيش.

وفي هذه الفترة سقط رومانوس ليكابينوس وعزل ابناؤه من مناصبهم الامبراطورية فخلا الجو لقسطنطين السابع واصبح الحاكم الوحيد للامبراطورية ويمكننا القول ان فترة حكم رومانوس ليكابينوس كانت من أهم الفترات في تاريخ العلاقات بين الامبراطورية والشرق . اذ انه بعد ثلاثة قرون من الصراع بين

الامبراطورية والعرب كانت بيزنطة خلالها دوما تقف موقف المدافع لاالمهاجم انتقلت بيزنطة ولأول مرة زمن ليكابينوس وكور كواس الى جانب الهجوم واستطاعت تحقيق بعض الانتصارات في عمليات عسكرية جرت على الحدود المشتركة بين الدولتين .

وفي هذه الفترة التي كان فيها قسطنطين السابع حاكما وحيدا للامبراطورية كان الصراع في الجبهة الشرقية هو سلسلة من معارك ضارية تخوضها بيزنطة مع سيف الدولة امير حلب ، وقد طال امد الصراع واستطاع الجانب العربي اثناءه ان يحقق انتصارات كبيرة ، ولكن النهاية كانت رجحان الكفة البيزنطية وانكسار الجيوش العربية في المعارك التي جرت في شمال بلاد مابين النهرين مما أدى الى عبور بعض فرق الجيش البيزنطي لنهر الفرات وفي خلال هذه المعارك استطاع القائد يوحنا تزيكمس ، الذي سيصبح امبراطورا فيما بعد ان يبرز نفسه كقائد محنك طويل الباع في ميدان قيادة الجيوش ،على ان هذه الانتصارات البرية قد فقدت كل اهميتها اذ انه رافقها انكسار شنيع في الميدان البحري ، فقد جهزت بيزنطة اسطولا ضخما سنة ٩٤٩ وارسلته الى شواطىء كريت لضرب الحكم العربي هناك ، ولكن هذه الحملة منيت بالاخفاق وخسرت بيزنطة عددا كبيرا من سفن اسطولها كما خسرت عددا اكبر من امهر بحارتها ، ومع ان العمليات العسكرية البرية لم تتوقف مع عرب ايطاليا وصقلية وغيرها من المناطق الغربية التي كانت تحتلها جيوش عربية ، فان هذه العمليات لم تكن ذات اهمية كبيرة ولم تؤد الى نتيجة حاسمة .

وفي خلال حكم رومانوس الثاني الذي لم يدم طويلا (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) استطاع القائد نقفور فوكاس (الذي سيتولى العرش فيما بعد) ان يستولي على جزيرة كريت ، مقر الاساطيل العربية ومنطلقها في عملياتها العسكرية ضد الشواطىء البيزنطية ، فأزاح بذلك كابوسا ثقيلا جثم طويلا على صدر الامبراطورية ، كما مكنها ايضا من استعادة موقع استراتيجي هام ومحطة تجارية

شغلت دورا فعالا في تجارة البحر المتوسط . كذلك استطاع نقفور فوكاس في معاركه البرية مع سيف الدولة ان يحقق انتصارا ضخما اذ انه حاصر حلب وتمكن بعد صعوبات ومعارك طاحنة ان يستولي عليها ، مع انها كانت معقل الحمدانيين وحاضرتهم ، ومرد ذلك أنه لم يكن بامكان حلب بامكاناتها المحدودة أن تتحمل طويلا نفقات المواجهة مع الامبراطورية ذات الموارد الهائلة ، فضلا عما عانى منه سيف الدولة من مشاكل داخلية مع القبائل ومع بعض غلمانه الذين تمردوا عليه ،ولموقف بعض رجالات الثغور منه .

وفي المرحلة التالية التي تغطي حكم اباطرة ثلاثة هم : نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس وباسيل الثاني الملقب بذابح البلغار حققت الامبراطورية أكبر انتصاراتها العسكرية ضد العرب المسلمين في المشرق فقد أوقف نقفور فوكاس سنوات حكمه الست(٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) لتصفية العمليات العسكرية في الجبهة العربية ولتحقيق نصر حاسم عليهم ، على الرغم مما كان يقوم في وجهه من أزمات في جبهات أخرى (كالجبهة البلغارية والجرمانية)تضطره لصرف بعض طاقاته في اخمادها ، وقد بدأت حروبه في الجبهة العربية باحتلال طرسوس ، ثم سار منها الى كيليكيا واحتلها ، وارسل اسطولا الى قبرص وتمكن من استردادها من العرب وقد مهد فتح كيليكيا وقبرص لنقفور طريق سورية فأخذ يعمل في سبيل الاستيلاء على انطاكية المدينة السورية الشهيرة ، وموطن الكثير من المقدسات النصرانية الشرقية ، وفعلا شق طريقه باتجاهها والقى عليها الحصار ، وعندما شعر أن حصارها سيطول ترك جيشه بعهدة أحد قواده وعاد هو الى القسطنطينية ، وفي أخر سنة من سنوات حكمه (٩٦٩) استطاع الجيش البيزنطي أن يدخل انطاكية ويغنم مغانم وافرة ، وعقب سقوط انطاكية سار الجيش البيزنطي باتجاه حلب وحاصرها ثانية فسقطت بعد حصار طويل ، وقد عقد قرعوية الذي تمرد على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني مع القائد البيزنطي معاهدة صلح حفظ لنا نصها ابن العديم في كتابه زبدة الحلب تعهد فيها بالاعتراف

بالسيادة البيزنطية وبان يدفع سكان المدينة المسلمين الجزية لبيزنطية وأن يعفى من دفع هذه الجزية سكان المنطقة من النصارى .كما تعهد قرعوية بأن يقوم بمساعدة بيزنطة في حالة قيامها بحرب ضد دولة غير مسلمة تقع في جهاته وبأنه سيقوم بحماية القوافل التجارية البيزنطية التي تمر عبر اماراته ، والمهم أن هذه المعاهدة قد وقعت بعد موت نقفور فوكاس مقتولا وعدت شروطها أقسى شروط اضطر أمير حلب أن يقبل بها ، وهكذا أصبحت كيليكيا والجزء الشامي من الثغور الذي يضم انطاكية مع شريط طويل من الساحل امتد حتى اللاذقية تابعين لبيزنطة ، كما أصبحت المناطق السورية الأخرى حتى دمشق وطرابلس مضطرة لدفع الجزية وللخضوع لبعض الشروط المهينة التي فرضت عليها.

وإذا صح أن نقفور كان بطلا بالنسبة لبيزنطة في منجزاته بالشرق فإنه لم يكن كذلك في الغرب ففي زمنه استطاع العرب أن يستخلصوا من الامبراوطورية أخر مواقعهم في صقلية ، بحيث أصبحت هذه الجزيرة بكاملها في يد العرب ، وكانت أعقد مشاكل يوحنا تزيكمس الذي خلف فوكاس (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) هي مشكلة الحفاظ على الممتلكات البيزنطية الجديدة في كيليكيا والثغور الشامية ، ففي مطلع حكمه لم يستطع أن يساهم بنفسه في الحروب في الجبهة الشرقية لأنه كان مشغولا بالحروب في الجبهات الروسية والبلغارية وبثورة بارداس فوكاس التي استهلكت كل جهوده ، وبعد أن حقق انتصارات في هاتين الجبهتين وقضى على ثورة بارداس فوكاس ورتب بعض الشؤون والقضايا الداخلية الأخرى ، التفت الى الجبهة الشرقية وأولاها عنايته .

ويحفظ لنا مصدر أرمني نص رسالة جديرة بالدراسة تبادلها يوحنا تزيكمس مع الملك أشوت الثالث ملك أرمينيا وحكت هذه الرسالة أن هذا الامبراطور هدف الى انتزاع القدس من أيدي العرب المسلمين وانه في سبيل الوصول الى ذلك قام بقيادة أول حملة صليبية توجه على رأسها ملك مسيحي الى المشرق ، وادعى يوحنا في هذه الرسالة انه غادر انطاكية برفقة جيشه واتجه جنوبا عبر

دمشق حتى دخل الأرض الفلسطينية واحتل الناصرة وقيساريه واصبحت القدس تحت رحمته ، وقال :لو لم يختبيء الوثنيون الذين كانوايعيشون هنالك في القلاع التي على الساحل خوفا منا ، لكنا استطعنا أن ندخل بمعونة الرب مدينة القدس المقدسة وأن نصلي للرب في الاماكن المقدسة ، والحقيقة غير هذا ، فهو وصل الى أطراف دمشق حيث جبى منها بعض المال ، ثم قصدت قواته بعض مناطق الساحل حتى طرابلس ، ثم عاد فهذا ما حكاه ابن القلانسي وغيره ، ومع هذا قال يوحنا في الرسالة نفسها : اليوم تحررت كل فينيقية وفلسطين وسورية من النير المحمدي وأصبحت تعترف بالسلطة البيزنطية . ومع أن هذه الرسالة حوت الكثير من المبالغات والمغالطات التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ، إنها خطيرة جدا ، فيها مؤشر على مدى الضعف الذي الم بعرب المشرق ، مع ما عانته بلاد الشام من اهمال في العصر العباسي ، ثم فيها الدليل على طابع الصراع الذي خاضه العرب مع اوربا ، وأن الحروب الصليبية بدأت في القرن العاشر للميلاد ، وحين أقول الحروب الصليبية لا انفي الطابع الديني عن الصراعات التي قامت قبل القرن العاشر ، لكن الآن استخدمت كلمة « الصليبية » لأن الحروب الصليبية استهدفت إزالة الاسلام وتحويل الوطن العربي الى دار للصليبيين فيما وراء البحار ، ولنتذكر هنا أن اوربا غدت مسيحية صليبية تعبد الايقونات وتمتلك كل كنيسة طقوسها ومفاهيمها المتفق عليها منذ القرن العاشر وليس تماما قبل ذلك ، وكان العرب قد امتلكوا فرصهم لهداية اوربا الى الاسلام ، لكنهم أضاعوها بسبب صراعاتهم الداخلية ، فهذه الأمة يتسلط عليها الاعداء بعدما تفقد وحدتها وتسلط قواها على بعضها بعضا ، فهذا التسليط انتحار والمنتحر ليس له من الله غير السخط .

المهم أنه بعدما عاد الجيش البيزنطي الى انطاكية ، غادرها الأمبراطور الى القسطنطينية حيث توفي في أوائل عام ٩٧٦ لكن غدت انطاكية قاعدة للجيوش البيزنطية في المنطقة لأن ما عداها من مناطق مرت بها جيوش تزيكمس ولم تخضع للنفوذ البيزنطي .

وحين اعتلى العرش باسيل الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) الذي خلف تزيكمس لم تكن ظروف الامبراطورية مواتية لاتباع سياسة الهجوم في الجبهة الشرقية حيث قامت في أول عهد هذا الامبراطور ثورات في أسيا الصغرى نظمها برارداس سكليووس ، وبارداس فوكاس ، كما استمرت المعارك في الجبهة البلغارية ، مما جعل الامبراطور الجديد يتفرغ لحل هذه المشكلة أولا ، ولما قضى على الثورات التفت الى الجبهة العربية في المشرق على الرغم من أن الحروب ضد البلغار لم تكن قد انتهت .

لقد ترك باسيل القتال على الجبهة مع البلغار وخف مسرعا نحو الشام ليحول دون سقوط حلب للفاطميين ، وفي أيام باسيل ثارت القبائل العربية في الشام ضد الفاطميين ، وأسس ـ كما رأينا ـ صالح بن مرداس دولته في حلب ، وتمنت الخلافة الفاطمية دوما السلم مع بيزنطة ، وهكذا عقدت مع بيزنطة معاهدات تهادن جددت مرارا .

إنما على الرغم من علاقات السلم الرسمية التي سادت بين بيزنطة ودولة الفاطميين في مصر فان سياسة الخليفة الحاكم بامر الله المتشددة مع النصارى أزعجت باسيل كمسيحي إلى حد بعيد ، وكان أن أمر الحاكم سنة ١٠٠٩ م بتخريب كنيسة القبر المقدس وكنائس أخرى في القدس ، كما صادر بعض كنوز الكنيستين ولاحق الرهبان واشاع الذعر في صفوف المسيحيين عامة حتى أن بعضهم أعلن اسلامه ، ومع هذا لم يقم الامبراطور البيزنطي بأي عمل لنصرة ابناء دينه مما يستدل منه على أنه لم يكن يملك من القوة ما يساعده على اتمام هذا الواجب الديني ، وتوجب على النصارى أن ينتظروا وفاة الحاكم سنة ١٠٢١ م حتى يعود جو التسامح الذي كان سائدا بينهم وبين المسلمين من قبل ، ففي سنة ١٠٢٣ م سافر بطريرك القدس نقفور الى القسطنطينية وأعلن للسلطات الكنسية هناك أن الكنائس المصادرة اعيدت الى المسيحيين مع ما كان فيها من كنوز وأشياء دينية .

كما أعلن أن كنيسة القبر المقدس وغيرها من الكنائس المخربة في مصر وسورية قد اعيد بناؤها وأن الرعايا المسيحيين في دار الخلافة يتمتعون بحريتهم الدينية كما كانت حالهم من قبل .

وفي الغرب أستمر عرب صقلية يغيرون على جنوب ايطاليا ، ولم تستطع الامبراطورية عمل شيء لانقاذ هذه البقعة من الأرض البيزنطية لانشغالها في جبهات أخرى ، وقد حاول باسيل الثاني في أخريات أيامه أن يقوم بعمل ما من أجل استعادة صقلية من العرب ، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من تحقيق مشروعه .

وقد شجعت الفوضى التي سادت الامبراطورية عقب وفاة باسيل العرب على البدء بسلسلة من الهجمات لاسترداد أراضي الثغور التي احتلها البيزنطيون من قبل ، واستطاعت هذه الهجمات أن تحرر جزءا من هذه المنطقة من النير البيزنطي ، كما وهزم المرداسيون حملة كبيرة قادها الأمبراطور رومانوس نفسه ، ومع هذا لاقى العرب بعض الانتكاسات في الثغور الجزرية ، ففقدوا الرها سنة ١٠٣٠ م وقد عرض الامبراطور رومانوس الثالث ، بعد سقوط الرها ، على العرب عقد معاهدة ، بين شروطها شرطان يستحقان الاهتمام ويتعلقان بمدينة القدس : إذ نص الشرط الأول على أن تتولى الخزينة البيزنطية نفقات ترميم كنيسة القبر المقدس ، ونص الشرط الثاني على أن يكون للامبراطور البيزنطي حق تعيين بطريرك القدس ، وقد طال أمد المفاوضات بين الامبراطور رومانوس الثالث ، والخليفة العباسي القائم لأن الخليفة عارض اولا هذين الشرطين ، وأخيرا قبل بهما وسمح بترميم كنيسة القبر المقدس على حساب البيزنطيين ، وكان البيزنطيون قد حصلوا على مثل هذه الموافقة من الخلافة الفاطمية التي كانت تحكم فلسطين مع جنوب بلاد الشام ، وقد زار هذه الكنيسة الرحالة الفارسي المشهور ناصري خسرو ١٠٤٦ ووصفها بأنها ذات بناء ضخم فسيح يتسع لثمانية الاف شخص وأنها تحتوى على زخارف غاية في الروعة والأبهة والغنى .

وحاولت بيزنطة من جهة اخرى في هذه الفترة أن تستعيد صقلية ، ولكن محاولاتها لم تصل الى اية نتيجة كما راينا من قبل ، وفي الحقيقة إن الانتصارات والأمجاد التي حققتها بيزنطة في ايام حكم الأسرة المقدونية - باستثناء كريت - كانت عابرة ، سببها لا تفوق بيزنطة إنما تمزق العرب ، والخلافة العباسية عاشت أسوأ ايامها في ظل بني بويه ، وبعدما انتقل الفاطميون الى مصر ، اخفقوا في الاستقرار في بلاد الشام ، لأسباب ووقائع بيناها في الجزء الأول من كتابنا هذا ، وبحثتها بشكل مفصل في كتابي « إمارة حلب » ثم في كتابي الجامع في اخبار القرامطة.

العلاقات مع البلغار والمجر

كانت العلاقات بين الأمبراطورية والبلغار زمن السلالة المقدونية علاقات على جانب كبير من الأهمية ، فبالرغم من أن بلغاريا زمن ملكها سيمون كانت من الد اعداء بيزنطة وتهدد عاصمتها وسلطة امبراطورها ، فان بيزنطة في ظل الأسرة المقدونية استطاعت أن تقلب ميزان القوى وأن تخضع بلغاريا اخضاعا تاما لسلطتها ، وأن تجعل منها مقاطعة بيزنطية ففي خلال حكم باسيل الأول كانت حالة من السلم تسود بين الامبراطورية وبلغاريا ، وبعد وفاة الامبراطور ميخائيل الثالث مباشرة تكللت المفاوضات بين الكنيستين البلغارية واليونانية من أجل اعادة الوحدة بينهما بالنجاح ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة زمن الملك البلغاري بوريس الذي أرسل ابنه سيمون ليتثقف في بلاط القسطنطينية ، وكان لهذه الصلات الودية آثار حسنة انعكست على كلا الجانبين . فقد استطاع الامبراطور باسيل في هذا الجو الودي بينه وبين البلغار أن يوجه جميع قواه لحرب العرب المشارقة في آسيا الصغرى وعرب المغرب في ايطاليا ، كما أن هذا السلم ساعد الملك البلغاري بوريس على التفرغ لشؤون مملكته الداخلية التي كانت قد تبنت النصرانية دينا منذ أمد قصير .

وبعد أن اعتلى الامبراطور ليون السادس العرش سنة ٨٨٦ فسدت هذه العلاقات السلمية بين الطرفين بسبب قضايا الجمارك التي فرضت على التجارة مع بلغاريا ، فقد كان يحكم بلغاريا في هذه الفترة الملك البلغاري الشهير سيمون بن الملك بوريس وكان مشهورا بشغفه بالعلم والثقافة وتمت في زمنه منجزات عظيمة في حقل الثقافة والتربية ، وكانت له مطامع سياسية واسعة اراد أن يحققها على حساب الامبراطورية البيزنطية ، وقد شعر ليون السادس انه لن يستطيع الوقوف في وجه مطامع سيمون لأن قواته كانت مشغولة في حروبها مع العرب فطلب النجدة من القبائل المجرية التي كانت ما تزال على الهمجية ، ووافقت هذه القبائل أن تقوم بهجوم مفاجيء على بلغاريا من جهة الشمال حتى تصرف انظار سيمون عن الحدود البيزنطية .

ويعد هذا الحادث من اهم الحوادث في تاريخ أوربا في هذه الفترة ، اذ انه للمرة الأولى ظهر على مسرح الأحداث في اوربا شعب جديد هو الشعب المجري ، الذي حالف بيزنطة في اول ظهوره .وقد هزم سيمون امام المجر في عدة معارك أول الأمر ،ولكنه استطاع من ناحية ثانية اثناء المفاوضات أن يضمن تحالفا مع اقوام اخرى وأن يقلب هزيمته الى نصر ، وأن يطرد المجر الى الشمال حيث سيستقرون ويقيمون في المستقبل دولتهم في أواسط الدانوب ، وبعد هذا النصر على المجر ، وجه سيمون اهتمامه نحو بيزنطة وسار على راس قواته مخترقا اراضيها حتى وصل الى أسوار القسطنطينية ، فاضطر الأمبراطور البيزنطي المغلوب أن يعقد معه معاهدة صلح تعهد بموجبها الا يقوم بالمستقبل بأى عمل عدائي ضد البلغار وان يقدم للملك سيمون هدايا سنوية قيمة .

وفي زمن ليون السادس حاول الملك البلغاري سيمون أن يضم سالونيك الى ملكه وذلك لأن العرب سنة ٩٠٤ م كانوا قد حاصروها ونهبوها وتركوها بحالة من الضعف شجعت الملك على محاولة تنفيذ هذا الحلم ، ولكن ليون السادس وقف في وجه هذا المشروع

واستطاع أن يقنع البلغار أن يقبلوا عوضا عن سالونيك أرضا أخرى فقبلوا بذلك ولم تقم في زمنه حروب مع البلغار ، غير أن هذه الحروب ما لبثت أن تجددت بعد وفاته ، وحاول الملك سيمون أن يستولي على القسطنطينية مما أثار الذعر في نفوس سكان العاصمة ، وأرسل بطريركها رسالة الى الملك البلغاري (مكتوبة بالدموع لا بالدم) ولكن البلغار لم يردوا على التوسلات وغيرها من التهديدات البيزنطية ، وتقدمت جيوشهم في الأراضي البيزنطية وخاضوا معارك عدة كان النصر فيها حليفهم ، وكان اشدها المعارك التي جرت سنة ٩١٧ م على أرض تراقية والتي أبيد فيها الجيش البيزنطي المحارب عن بكرة أبيه ، وقد فتحت هذه المعارك أمام سيمون طريق القسطنطينية ولكنه لم يستطع السير اليها لأنه كان عليه أن يوجه جيوشه الى جبهة جديدة في منطقة الصرب ، وحين تولى القائد رومانوس ليكابينوس عرش الأمبراطورية سنة ٩١٩ كانت القوات البلغارية قد وصلت الى حدود الدردنيل ، كما أن جيوشهم الأخرى كانت تخترق بلاد اليونان الوسطى . وفي الوقت نفسه حاول سيمون أن يعقد اتفاقا مع عرب إفريقية على أساس توجيه جيوش مشتركة لحصار القسطنطينية وكانت كل مقاطعات تراقية ومقدونيا ما عدا القسطنطينية في يد البلغار ، وكان الملك البلغاري واثقا من نصره القريب على الأمبراطور البيزنطي لكن الذي حدث قيام مفاوضات بين الطرفين تتوجت بعقد اجتماع سنة ٩٢٤ م بين سيمون ورومانوس ، فحين التقى العاهلان تبادلا التحيات الودية والاحاديث ، وقد أدى هذا اللقاء وهذه الاحاديث الى عقد معاهدة بين الطرفين نصت على أن يتوقف القتال بينهما ، وأن يتعهد الامبراطور البيزنطي بدفع جزية سنوية للبلغار ، وقد سر سيمون لهذه النتيجة ولعدم قيام معركة بينه وبين الامبراطورية لأنه كان يتوقع بعض المصاعب مع المملكة الصربية الجديدة التي كانت تتفاوض مع بيزنطة ، ولأن مفاوضاته مع عرب إفريقية لم تصل الى نتيجة حاسمة ، وحاول بعد هذا أن يعيد إحياء مشروعه ضد القسطنطينية ولكن المنية عاجلته سنة ٩٢٧ قبل أن يستطيع تحقيقه .

وفي عهد خليفة سيمون المسمى بطرس والذي كان مشهورا بحبه للسلام عقدت معاهدة صلح مع بيزنطة دامت اربعين عاما ، واعترفت فيها الامبراطورية باللقب الملكي لبطرس وبالكنيسة البلغارية التي انشئت زمن سلفه سيمون ، وأخذت المملكة البلغارية التي أوصلها سيمون الى الأوج تنحدر زمن بطرس وتتمزقها الخلافات الداخلية ، ولم يؤد خلو الساحة من البلغار الى دوام السلم الذي كانت تنعم به القسطنطينية فقد قام المجريون سنة ٩٣٤ بمهاجمة مقاطعة تراقية ، وتقدموا حتى وصلوا الى القسطنطينية ثم اعادوا ما احتلوا من أراضي ليعاودوا الكرة سنة ٩٤٣ وهاجموا تراقية من جديد ، وقد اضطر الامبراطور رومانوس ليكابينوس ازاء هذه الاعتداءات أن يعقد معهم معاهدة صلح مدتها خمس سنوات .

وقد جددت هذه المعاهدة زمن الامبراطور قسطنطين بوفيرو جينتوس ، ومع ذلك ظهرت قوات مجرية في النصف الثاني من القرن العاشر في الاراضي البلقانية أكثر من مرة وقامت بعمليات عسكرية ، وفي زمن الاباطرة نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تجددت المعارك بين الامبراطورية والبلغار ، وتدخل الروس في هذه المعارك ووقفوا الى جانب الامبراطورية بناء على طلب المساعدة الذي قدمه اليهم الامبراطور نقفور فوكاس ،وقد أدى تدخل الروس في هذه المعارك الى ظهور خطر جديد على الأرض البيزنطية ، وهو الخطر الروسي إذ اظهر الروسي سفياتوسلاف مطامع اقلقت الامبراطور البيزنطي ، ولم يكن قلق الامبراطور دونما مسوغ اذ أخذت القوات الروسية تزحف على بيزنطة حتى وصلت طلائعها الى القسطنطينية ، واستطاع يوحنا تزيكمس أن يرد الزحف الروسي عن عاصمته وأن يقهر سفياتوسلاف وأن يحتل كل المقاطعات الواقعة في شرقي بلغاريا وأن يخضع المملكة البلغارية لحكمه ، واستفاد البلغار من الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد وفاة تزيكمس فأعلنوا الثورة على بيزنطة بزعامة صموئيل حاكم الجزء الغربي من بلغاريا الذي كان مستقلا وكان الصراع في هذه الفترة بقيادة

الامبراطور الجديد باسيل الثاني الذي عانى من بعض الهزائم امام صمويئيل الذي اغتنم الفرصة واعلن نفسه ملكا على البلغـار ، ولكن ما لبث ان ابتسم الحظ من جـديد لبـاسيل وذلك في بـداية القـرن الحادي عشر فاستطاع أن يقلب هزيمته الى نصر ساحق وان يعمـل يد القتل والذبح في البلغار حتى أصبح لقبه الرسمي (ذابح البلغار) وقد وصلت فظائعه الى حد نقرأ معه مثلا انه في احدى المعارك بعد أن قتل ما قتل سمل عيون اربعة عشر الف جندي بلغاري دفعة واحـدة وأعادهم عمي الى بلادهم ، ويقال ان صمويل حين رأى هذه الأعداد من الجنود العميان أصـيب بصـدمة أدت الى مـوته فـورا وذلك سنة ١٠١٤ م ، وكانت بلغاريا بعدوفاته في حال من الضـعف جعلت من السهل على الامبراطورية البيزنطية ضمها اليها وهكذا اصبحت بلغاريا سنة ١٠١٨ م مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية البيزنطية يتولى الحكم فيها حاكم من قبل الامبراطور ، مـع انهـا احتفـظت ببعض مظاهر الاستقلال الداخلي.

وقامت ثورة في بلغاريا ضد الامبـراطورية في حـوالي منتصـف القرن الحادي عشر ولكنها اخمدت بقسـوة وحـرمت بلغـاريا مـن الاستقلال الداخلي الذي كانت تنعم به من قبل ، وظل الحال هـكذا حتى قيام المملكة البلغارية الثانية وذلك في القرن الثاني عشر .

العلاقات بين بيزنطة والروس

كانت العلاقات بين بيزنطة والروس زمن الاسرة المقدونية دائبـة ونشيطة على عكس ماكانت عليه في عهد الأسرة السالفة ، وقد بدأت زمن الامبراطورليون السادس الملقب بـالحكيم ، وذلك حين اقتحـم الأمير الروسي أوليغ المياه البيزنطية وظهرت سـفنه امـام أسـوار القسطنطينية وذلك في سنة ٩٠٧ م . وقد استطاع أوليغ أن يحاصر بعض المواقع القريبة من العاصمة وان يقتل عددا من الاشخاص مما اضطر الامبراطور أن يفاوضه وان يعقد معه اتفاقا ، وقد جدد هـذا

الاتفاق سنة ٩١١ م ونصت بنوده على تسهيلات وامتيازات تجارية للروس في البلاد البيزنطية .

وفي زمن الامبراطور رومانوس ليكابينوس هوجمت القسطنطينية مرتين من قبل الامير الروسي ايغور ، وقد قام ايغور بأول حملاته على العاصمة البيزنطية سنة ٩٤١ م وذلك حين ابحرت سفنه الى شاطيء بيثينيا على البحر الاسود ، ومنه الى البوسفور حيث حاصرت الشواطيء البيزنطية في هذه المنطقة وتقدمت على طول الشاطيء الاسيوي قبالة القسطنطينية . على انه لم يكتب لهذه الحملة النجاح ، اذ استطاع البيزنطيون القضاء على السفن الروسية بواسطة النار الاغريقية ، وهرب ما تبقى منها باتجاه الشمال اما من وقع من الروس في الاسر فقد قتله البيزنطيون ، وقد استعد ايغور استعدادا اقوى لحملته الثانية على العاصمة البيزنطية التي بداها سنة ٩٤٤ م فقد جند الامير الروسي جنودا كثيرين من قوميات مختلفة وحشدهم استعدادا لما نواه من غزو وحين سمع الامبراطور بانباء هذه الاستعدادات ذعر ذعرا شديدا وسير وفدا من كبار رجال الامبراطورية محملين بالهدايا الى روسيا والى زعماء القبائل الاخرى المتحالفين معها .

وعرض الوفد على الروس أن يعقدوا معهم معاهدة مماثلة للمعاهدة التي عقدت من قبل مع اوليخ وأن تدفع بيزنطة لهم جزية سنوية كبيرة ، ولكن الامير الروسي رفض أول الامر هذا العرض وسار بجيشه حتى وصل شواطيء نهر الدانوب . وهناك تشاور مع رجالاته وقر رايهم على قبول العرض البيزنطي والعودة الى كييف ، وفي العام الذي تلاه عقدت معاهدة بين الطرفين كانت شروطها أقل امتهانا للسيادة البيزنطية من المعاهدة المتقدمة التي عقدت مع اوليخ ، وقرر المفاوضون أن تكون هذه المعاهدة أبدية .

وفعلا ساد عهد من السلم بين الروس والبيزنطيين وتمتنت اواصر الصداقة بينهم.وفي سنة ٩٠٧ م زارت الاميرة الروسية اولغا القسطنطينية فاستقبلها الامبراطور قسطنطين السابع بورفير

جينيتوس وزوجته استقبالا رائعا ، أما العلاقات مع الروس زمن الاباطرة نقفور ويوحنا تزيكمس فقد لمحنا اليها من قبل ولا حاجة هنا للتكرار .

وفي فترة حكم باسيل الثاني كانت علاقات الامبراطورية مع الامير الروسي فلاديمير الذي يرتبط اسمه ارتباطا وثيقا بانتشار المسيحية في روسيا ، علاقات وطيدة ، ففي العقد التاسع من القرن العاشر كان الامبراطور في وضع حرج وذلك بسبب زحف فوكاس بجيوشه نحو العاصمة في الوقت الذي كانت فيه مقاطعات الامبراطورية الشمالية تواجه خطر الاجتياح البلغاري ، وكانت فرصة باسيل الوحيدة هي طلب المساعدة من الأمير الروسي فلاديمير الذي وافق على نجدة الامبراطور بجيش بلغ تعداده الستة آلاف مقابل أن يتعهد الامبراطور بتزويجه أخته أنا ، وقد نص الاتفاق أيضا على أن فلاديمير سيدخل في النصرانية وسيجبر شعبه على اعتناقها ، وفعلا أرسل فلاديمير الجيش المتفق عليه لمساعدة باسيل في حروبه ضد فوكاس واستطاع بفضله أن يقهر هذا الثائر وأن يرديه قتيلا في ساحة المعركة ، ويبدو أن باسيل لم يكن جادا في تحقيق وعده لفلاديمير بتزويجه من أخته ، ولذلك ماكان من هذا الأخير حين تلكأ باسيل في إتمام مراسيم الزواج إلا أن سار بجيشه واحتل إحدى المدن البيزنطية الهامة في شبه جزيرة القرم وأجبر باسيل على تحقيق وعده .

وهكذا عمد فلاديمير نصرانيا وتزوج من انا ، ودخلت روسيا في النصرانية اعتبارا من نهاية القرن العاشر وساد السلم نتيجة هذا بين الطرفين الروسي والبيزنطي لأمد طويل ونشطت العلاقات التجارية بينهما .

لقد استمر السلم حتى اعتلى العرش البيزنطي الأمبراطور قسطنطين مونوماكوس سنة ١٠٤٣ إذ يقال انه حدث في هذه السنة خصام بين بعض التجار الروس والبيزنطيين في القسطنطينية قتل في اثنائه أحد الأشراف الروس ، فاستغل الروس هذا الحادث لتوجيه

حملة ضد بيزنطة ، فجهزوا اسطولا يتألف من عدد كبير من السفن وابحروا به نحو الشواطىء البيزنطية ، ولكن البيزنطيون استطاعوا تدمير هذا الأسطول بواسطة النار الاغريقية ، وكانت هذه آخر حملة توجهها روسيا ضد بيزنطة في العصور الوسطى .

العلاقات مع ايطاليا وأوربا الغربية

إلى جانب الهجمات العربية على إيطاليا فإن أهم الأحداث التي شهدتها هذه البلاد في منتصف القرن التاسع كانت انفصال جمهورية سان مارك (البندقية) عن الامبراطورية البيزنطية وصيرورتها جمهوزية مستقلة ، وقد تعاملت بيزنطة مع هذه الجمهورية الجديدة على أساس من المساواة وبالأسلوب نفسه الذي تتعامل به دولتان مستقلتان ، ولاشك أن السبب في ذلك توفر مصلحة مشتركة بينهما نشأت عن الهجمات العربية على أراضي الطرفين وبسبب اعتداءات سلاف منطقة الأدرياتيك على حدود كل منهما . وقد زاد في النفوذ البيزنطي في إيطاليا انتزاع جيوش الامبراطورية لباري وتارنتوم من العرب وأعمال نقفور فوكاس الناجحة ضد العرب في كريت وجنوب إيطاليا .

وكان الخطر العربي على روما حافزا للبابا يوحنا الثامن لأن يقوم بمفاوضات مع الأمبراطور باسيل الأول ، وأن يقبل ببعض التنازلات للكنيسة الشرقية مقابل ضمان حماية بيزنطة لروما في حال هجوم عربي عليها، وبناء عليه استمر النفوذ البيزنطي في إيطاليا بتزايد خلال القرن العاشر وأدى ذلك إلى ازدياد نفوذها الثقافي والديني في جنوب إيطاليا .

. وقد شهدت بيزنطة وإيطاليا في هذا القرن العاشر قيام منافس قوي في شخص أوتو الأول الحاكم الجرماني الذي وضع البابا يوحنا الثاني عشر التاج الأمبراطوري على رأسه في روما سنة ٩٦٢ ، ويعرف أوتو الأول تاريخيا بأنه مؤسس الامبراطورية الرومانية

المقدسة للأمة الجرمانية ، وقد كان هم أوتو بعد أن تسلم التاج أن يصبح سيدا على جميع إيطاليا ، وهذا لاشك جعله يبدو كعدو بالنسبة لبيزنطة التي كان لها أيضا مصالح موروثة في إيطاليا ، والتي كان امبراطورها نقفور فوكاس يحلم بأن يقيم تحالفا مع الجرمان ضد المسلمين ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ، بل قام أوتو بهجمات على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا ، وتجددت هذه الهجمات زمن الأمبراطور يوحنا تزيكمس مما أجبر بيزنطة على تغيير سياستها الايطالية ، ولهذا عقد هذا الامبراطور معاهدة سلم مع أوتو الجرماني وزوج الأميرة البيزنطية تيوفانو من أوتو الثاني ابن أوتو الأول ، وبذلك تمتنت عرى الصداقة بين الأمبراطوريتين ، وقام بينهما تحالف ، وتسلم أوتو الثاني (٩٧٣ ـ ٩٨٣) مهمة الوقوف في وجه الهجمات العربية على إيطاليا نيابة عن الأمبراطور البيزنطي .

وقد كسر أوتو الثاني في إحدى المعارك مع العرب ولم يلبث بعد هذا الانكسار أن توفي وبموته توقف التوغل الجرماني في الممتلكات البيزنطية في إيطاليا لفترة طويلة من الزمن ، وجاء من الزواج الذي تم بين تيوفانو وأوتو الثاني أمير تولى العرش في الأمبراطورية الرومانية المقدسة في الفترة بين سنتي (٩٨٣ ـ ١٠٠٢) وعرف باسم أوتو الثالث ، وكان أوتو الثالث هذا معاصرا للامبراطور البيزنطي باسيل الثاني وقريبا له ويكن حبا شديداً البيزنطة ومؤسساتها الثقافية حيث عاشت أمه وأشبعت خياله بذكريات نشأتها فيها ، وكانت أحلام كثيرة تراود خيال هذا الأمير بسبب ثقافته الكلاسيكية وإعجابه بروما من جهة وببلاط القسطنطينية من جهة أخرى ، فقد كان من جملة أحلامه مثلا أن يعيد مجد روما القديمة وأن يعيد إلى الوجود الامبراطورية الرومانية القديمة وعاصمتها روما ، ولكن لم يتح لهذه الأحلام أن تتحقق لأنه توفي فجأة وهو في الثانية والعشرين من عمره وذلك في مطلع القرن الحادي عشر (١٠٠٢) .

وعلى الرغم من أن الخطر العربي على إيطاليا قد خفت حدته في

مطلع القرن الحادي عشر بسبب نشاط أسطول البندقية ومساهمته في حراسة الشواطىء الايطالية من الهجمات العربية فإن خطرا جديدا اشد وادهى بدأ يتهدد الأرض الايطالية ، ألا وهو خطر النورمان الذين تسربوا إلى إيطاليا في مطلع القرن الحادي عشر ، وما لبثوا ان هاجموا بيزنطة نفسها فيما بعد ، وقد استطاعت بيزنطة في أولى معاركها مع النورمان على الأرض الايطالية أن تدحرهم وذلك زمن الأمبراطور باسيل الثاني ، وخلال فترة الصراع الديني بين روما والقسطنطينية التي انتهت بالانشقاق بين الكنيستين ١٠٥٤ م انحاز النورمان إلى جانب روما وأخذوا يتقدمون داخل الممتلكات البيزنطية في إيطاليا ، وستزداد قوة النورمان حتى تصل أوجها في منتصف القرن الحادي عشر ، وذلك بعد انتهاء فترة حكم الأسرة المقدونية ، وسلف بنا ان تحدثنا عن احتلالهم لجنوب إيطاليا وانتزاعهم صقلية من العرب .

شؤون الكنيسة

وكانت أهم الأحداث الكنسية التي تمت خلال فترة حكم الأسرة المقدونية هو الانفصال التام بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية الذي تم في منتصف القرن الحادي عشر بعد خصومات طويلة مدة قرنين تقريبا .

والى جانب هذا الحدث الهام تمت احداث أخرى أقل أهمية في الحقل الكنسي ،منها ان الأمبراطور باسيل عزل البطريرك فوتيوس من منصبه وأعاد إلى الكرسي البطريركي اغناطيوس الذي كان قد عزل زمن سلفه الأمبراطور ميخائيل الثالث ، وقد قصد باسيل من هذا العمل دعم مركزه السياسي عن طريق تنصيب بطريرك يؤيده ، وله أيضا شعبية عند عامة الشعب البيزنطي ، وأراد باسيل أن يذهب إلى مدى أبعد في دعم مركزه السياسي عن طريق كسب التأييد الديني ، فأرسل هو والبطريرك الجديد اغناطيوس رسائل إلى البابا في روما يعلنان له فيها اعترافهما بسلطته العليا على الكنيسة

الشرقية ويشرحان له رغبتهما في كنيسة موحدة لاانقسام فيها ويرعاها راع واحد هو البابا ، وكان هذا ولاشك نصراللبابوية وللبابا نيقولا الأول خاصة ، ولكن القدر لم يمهل هذا البابا ليشهد نتائج نصره العظيم إذ أنه قبيل وصول هذه الرسائل إلى روما توفي وتسلمها خلفه البابا هادريان الثاني .

وهكذا دخلت الشؤون الدينية لبيزنطة في عهد جديد أصبح للبابوية فيه القول الفصل في جميع الأمور الكنسية . وكان البطريرك المعزول قد نفي أول الأمر وتعرض لأشد أنواع الحرمان والضنك ، ولكن باسيل شعر أن البطريرك المعزول مازال يتمتع بشعبية كبيرة وله عدد كبير من الأتباع ذوي النفوذ ، لذلك أعلن عفوه عنه واستدعاه إلى القصر الأمبراطوري وأوكل إليه أمر تثقيف أولاده ، وحين توفي أغناطيوس أعيد فوتيوس للكرسي البطريركي ، وكانت عودته لهذا المنصب بداية عهد جديد من العلاقات مع البابوية ، حيث أنه عقد في القسطنطينية مجمعا دينيا حضره جمع غفير من رجال الدين وممثلون عن البابا ، وكان المجمع من العظمة والأهمية بحيث شبه بالمجامع المسكونية وكان نصرا كبيرا لفوتيوس إذ أنه افتتح بحمد فوتيوس وانتهى بتمجيده . وقد ناقش هذا المجمع قضية رئاسة البابا للكنيسة وقرر أن البابا بطريرك كبقية البطاركة وانه لاسلطة له على الكنيسة عموما ولذلك فلا لزوم لموافقته على تعيين بطريرك القسطنطينية ، وقد أغضب هذا القرار البابا كثيرا ، فأرسل وفدا إلى القسطنطينية وطلب إلغاء جميع القرارات الماسة بالمنصب البابوي من بين مقررات المجمع ورفض فوتيوس وباسيل الانصياع لطلب الوفد وذهبا إلى حد إصدار الأوامر باعتقال أعضائه ، وقد أدى هذا الموقف إلى سوء العلاقات بين البابوية والقسطنطينية وإلى قيام نوع من القطيعة بين روما والأمبراطورية ، ولم يطل الزمن بفوتيوس إذ أنه بعد وفاة باسيل الثاني ومجيء ليون السادس للعرش البيزنطي عزل من منصبه ، ومالبث بعد عزله بخمس سنوات أن توفي وتكاد الكلمة تجمع على أن فوتيوس كان من أشخاص

عصره الذين شغلوا دورا بارزا لافي المجال الديني فحسب بل في المجال الثقافي وحتى السياسي ايضا .

ورأينا انه إلى جهود باسيل الأول يعود الفضل في إدخال الروس في النصرانية ، كما أن أعدادا كبيرة من القبائل السلافية الساكنة في منطقة البيلوبونيز اعتنقت النصرانية في عهده ، وإليه ينسب أمر ينص على وجوب إجبار اليهود القاطنين في الامبراطورية على التخلي عن يهوديتهم والدخول في النصرانية .

وكان الامبراطور نقفور فوكاس قد أصدر سنة ٩٦٤ م قرارا عد من اخطر القرارات أثرا على الأديرة والكنيسة ، وذلك على الرغم من شدة تعلقه بالمسيحية ، ونص قراره :

على منع اقامة اديرة جديدة ومنع تقديم الهدايا والاعطيات ووقف الاوقاف للاديرة والمستشفيات الخيرية وتحريم تقديم الهبات والاموال لصالح رجال الدين وجميع الهيئات المرتبطة بالكنيسة ، ويبدو لأول وهلة وكأن هذا القرار موجه من امبراطور وثني ضد الكنيسة وجميع الهيئات التابعة لها ، ولكن الواقع انه كان لهذا القرار مايسوغه ، إذ أن الكنيسة منذ عصر الايقونات قد أصبحت على درجة من الغنى الفاحش لاتوصف ، وغناها كان في الاراضي والعقارات والنقد والتحف والنفائس وغير ذلك من أشكال الثروة مما حولها الى مؤسسة اقطاعية كبيرة تستولي على املاك واموال الرعايا المؤمنين وتسخر كل ذلك لاقامة طبقة من رجال الكهنوت والرهبان المترفين على حساب شعب يعاني اكثره من الفاقة والحرمان ، وقد أورد فوكاس ضمن الأسباب المسوغة لاصدار هذا القرار قوله : إنا نقصد أن نقتلع جذور الطمع الذي يكرهه الرب ولايرضاه .

وكان رد فعل الناس المتدينين في غالبيتهم العظمى عنيفا ضد الامبراطور وقراره الجائر ، وبدا أن الناس لن يعملوا به طويلا . وفعلا قام باسيل الثاني بالغاء هذا القرار وعده قرارا جائرا ومعاديا

للكنائس والمستشفيات والرب ايضا ، وبسبب غضب الرب على الامبراطورية قادها الى حافة الانهيار والدمار .

وبعد وفاة الامبراطور باسيل الثاني سنة ١٠٢٥ دخلت الامبراطورية البيزنطية مرحلة جديدة من مراحل حياتها حافلة بالاضطرابات تميزت بسرعة تبدل الاباطرة وسير الامبراطورية سيرا حثيثا في طريق التدهور ، وقد استطاعت الامبراطورة زوية أن ترفع ازواجها الثلاثة الى السدة الامبراطورية كل بدوره ، وفي سنة ١٠٥٦ حين توفيت الامبراطورة ثيودورا اخت الامبراطورة زوية انتهى حكم الاسرة المقدونية وابتدات فترة من الاضطرابات التي دامت خمسا وعشرين سنة (١٠٥٦ ـ ١٠٨١) وانتهت هذه الفترة الجديدة باعتلاء الامبراطور الكسيوس كومنين العرش الامبراطوري وبذلك ابتدأ عصر حكم أل كومنين ، وتعد الفترة ما بين وفاة زوية واستلام الكسيوس كومنين لعرش الامبراطورية من اهم فترات التاريخ البيزنطي لانه تهيا خلالها الجو الذي ادى في النهاية الى قيام الحركة الصليبية في الغرب ، كما مارس خلالها اعداء الامبراطورية في الخارج شتى انواع الضغوط عليها من جميع الجهات : فالنورمان نشطوا في الغرب ، والاقوام السلافية كانت تلقي بثقلها على المناطق الشمالية ، وقام السلاجقة التركمان باثارة المتاعب في وجه الامبراطورية في المناطق الشرقية ، وادى كل هذا الى تناقص رقعة الامبراطورية وخروج بعض المناطق من يدها ، ثم إلى اذلالها وتدمير جيوشها واسر امبراطورها في معركة مناز كرد .

وكان من جملة الخصائص المميزة لفترة الاضطرابات هذه ثورة العناصر العسكرية وطبقة النبلاء ضد الحكومة المركزية ، وقيام صراع شديد بين الطرفين انتهى بنصر الاقاليم على العاصمة ،وقد توج هذا النصر باعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية وبداية مرحلة جديدة من مراحل الحكم في الامبراطورية البيزنطية.

كان جميع اباطرة فترة الاضطرابات من اصل يوناني ففي سنة ١٠٥٦ اجبر رجال البلاط الامبراطورة العجوز ثيودورا أن

تسمي ميخائيل ستراتيوتيكوس ، وهو احد رجالات البلاط خلفا لها ، وقد توفيت ثيودورا عقب تسمية خلفها مباشرة واعتلى العرش بعدها ستراتيوتيكوس باسم ميخائيل السادس ، وقد حكم ميخائيل السادس هذا لمدة عام تقريبا(١٠٥٦ ـ ١٠٥٧) ، وقامت في وجهه حركة معارضة تزعمها جيش مقاطعة اسيا الصغرى الذي سمى قائده اسحاق كومنين امبراطورا ، واسحاق هذا سليل اسرة من ملاكي الارض الكبار ، وقد اشتهر بشجاعته وبسالته في المعارك ضد التركمان ، وكان تعيين اسحاق كومنين اول نصر للحزب العسكري على الحكومة المركزية في فترة الاضطرابات هذه ، واستقال ميخائيل السادس اثر هذه الحركة من منصبه وامضى بقية حياته كفرد عادي .

ولم يتح لهذا النصر الذي حققه الحزب العسكري ان يعمر طويلا .اذ ان اسحاق كومنين مالبث بعد حكم لم يدم سنتين (١٠٥٧ ـ ١٠٥٩) ان استقال من منصبه وانصرف الى العبادة والتدين ، وقد خلفه قسطنطين العاشر دوكاس فحكم بين سنتي (١٠٥٩ ـ ١٠٦٧) وكان ماليا من الطراز الأول وتمتع بحس سليم وعدالة واضحة ، وصرف همه بشكل خاص لقضايا الدولة ، ولم يعر قضايا الجيش والشؤون العسكرية بشكل عام اهتماما كبيرا ، ويمكننا ان نعد فترة حكمه بمثابة ردة فعل مدنية على التدخل العسكري الذي استشرى فيما مضى واوصل اسحاق كومنين الى العرش ، أو كمحاولة لاظهار انتصار العاصمة على المقاطعات ، على انه كانت هناك ظروفا لاتسوغ الموقف المتعنت الذي وقفه قسطنطين العاشر من الجيش ، واهم هذه الظروف وجود اخطار خارجية استدعت وجود جيش قوي يستطيع رد الاعتداءات التي هددت حدود الدولة ، وبدا واضحا أن الامبراطورية بحاجة لشخص يستطيع أن ينظم مقاومة عسكرية مسلحة تستطيع الوقوف في وجه خصوم بيزنطة ، وهكذا قام حزب معارض للامبراطور . استطاع أن يفرض ارادته على ارملة قسطنطين بعد وفاته وأن يجبرها على الزواج من القائد الشهير رومانوس ديوجانس واعتلى العرش باسم رومانوس الرابع وحكم بين

سنتي(١٠٦٧ ـ ١٠٧١ م) وبعد وصول رومانوس الى العرش النصر الثاني الذي استطاع الحزب العسكري تحقيقه ، وقد دام حكم هذا القائد الذي وصل الى السدة الامبراطورية مدة أربع سنوات ، وانتهى كما راينا بكارثة كبيرة ، اذ انه وقع في أسر السلطان السلجوقي الب ارسلان ، وقد ادى أسر الامبراطور الى حدوث بلبلة داخلية كبيرة ، وانتهى الراي برجال الدولة الى ضرورة تنصيب امبراطور جديد ، وهكذا انتخب ميخائيل السابع واعتلى العرش الامبراطوري سنة ١٠٧١ م واستمر حكمه حتى سنة ١٠٧٨ م.أما رومانوس الرابع ، فقد عاد من الأسر ليجد أن العرش قد شغل من قبل امبراطور جديد ، وحاول استرداد عرشه واخفق وتعرض لسمل العيون والعذاب الشديد ومالبث ان توفي .

كان ميخائيل السابع مشغوفا بالعلم والمناظرات الفكرية وكتابة الشعر ، ولم يكن له اي ميل للقضايا العسكرية او الحروب ، وباعتباره ابن قسطنطين العاشر دوكاس ، فإنه ورث عن ابيه ميلا واضحا نحو الادارة وكرها شديدا للعسكريين والأمور العسكرية ، مما جعل عرشة مهددا بأخطار خارجية لايستطيع لها ردا ، وبدا واضحا للمرة الثانية أن الامبراطورية بحاجة لامبراطور عسكري يساعده جيش قوي يمنعان عنها المخاطر التي تتهددها ، وتزايد شعور الناس بهذه الحاجة وقامت ثورة في أسيا الصغرى تزعمها نقفور بوتنياتس ، أحد القادة العسكريين في تلك المنطقة ، وقد أعلن بوتنياتس امبراطورا في اسيا الصغرى وزحف على العاصمة حيث خلع الامبراطور واضطره للالتجاء الى أحد الأديرة ولبس التاج الامبراطوري بعد أن سلمه اياه بطريرك القسطنطينية ، وقد استمر حكم الامبراطور الجديد من ١٠٧٨ حتى ١٠٨١ ولكنه كان مسنا ومصابا بعدة امراض مما جعله غير قادر على تحقيق الآمال التي عقدت عليه في دفع الأخطار الداخلية والخارجية ، يضاف الى هذا ان الارستقراطيين وملاكي الأرض في المقاطعات لم يعترفوا به كامبراطور ، وظهر عدة طامعين بالعرش في مقاطعات الامبراطورية المختلفة .

وكان من هؤلاء الطامعين في العرش الكسيوس كومنين ، وهو ابن اخ الامبراطور المستقيل اسحاق كومنين ، وقد أظهر الكسيوس مهارة فائقة في الوصول الى هدفه وهو العرش الامبراطوري ، واستطاع ان يستغل الظروف المختلفة ليبرز نفسه كأفضل المرشحين لهذا المنصب ، وأخيرا وفي سنة ١٠٨١ تنازل بوتنياتس عن العرش والتجأ الى احد الأديرة ودخل سلك الرهبنة ، فتوج الكسيوس كومنين وتسلم العرش واضعا بذلك حدا لفترة الاضطراب هذه ، ويعد ارتقاء الامبراطور الجديد نصرا للفئة العسكرية وللمقاطعات على السياسيين والعاصمة معا .

وليس هناك شك في أن الأعوام الطوال من الصراع على العرش قد جعلت بيزنطة في حال من الضعف الشديد وقللت من مكانتها في ميدان السياسة العالمية في عالم العصور الوسطى ، وقد زاد في تدهور الامبراطورية وتدني مركزها الأوضاع الخارجية التي كانت تجابهها ولاسيما في الجبهة الشرقية حيث كان السلاجقة التركمان يصوبون سهامهم الى قلبها .